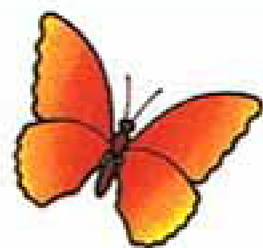


كتب الفراشة - القِصص العالميّة

# سَايْلَس مَارْنَر

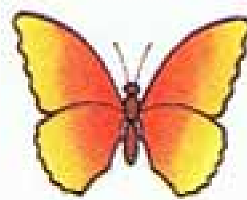
كتب الفراشة - القصص العالميّة

# سَايْلَس مَارْنَر



إعداد: الدّكتور ألْبير مُطْلَق

عَن قصَّة: جُورج إلْيُوت

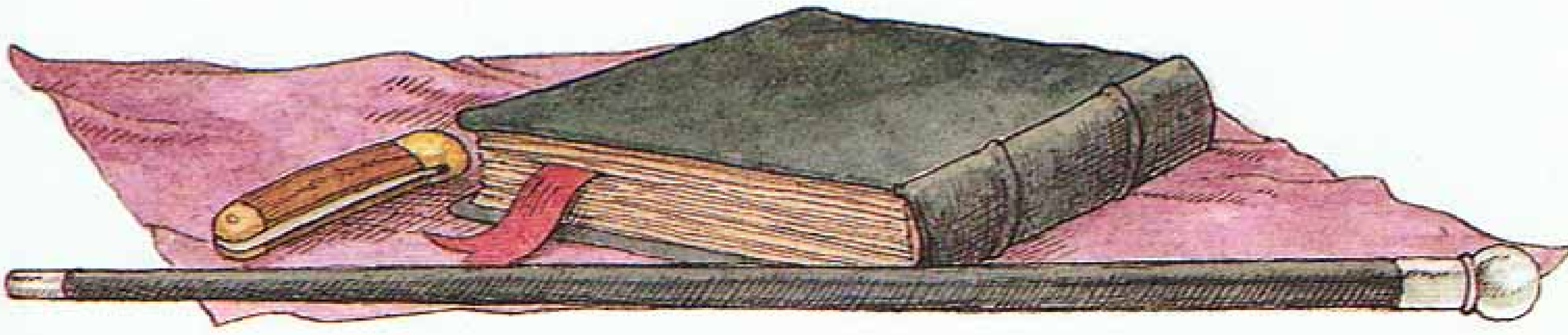


مَكتبَة لبْنان ناشِرُون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص.ب: ١١-٩٢٣٢
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم



الطبعة الأولى ١٩٩٦
رقم الكتاب 01 C 196820
طبع في لبنان



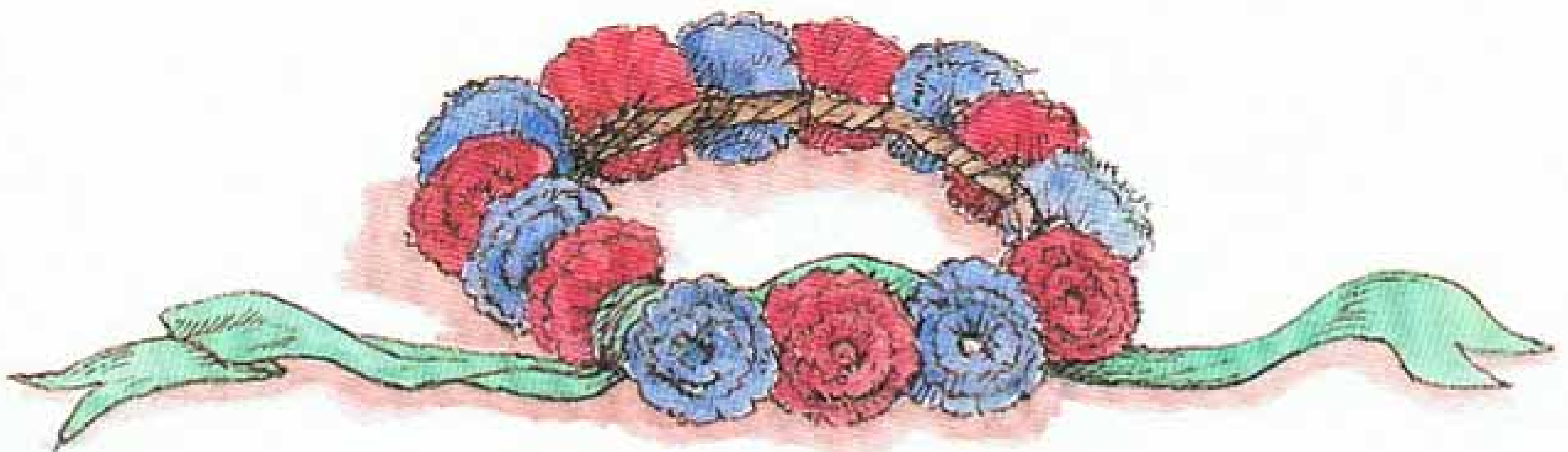
# مقدّمة

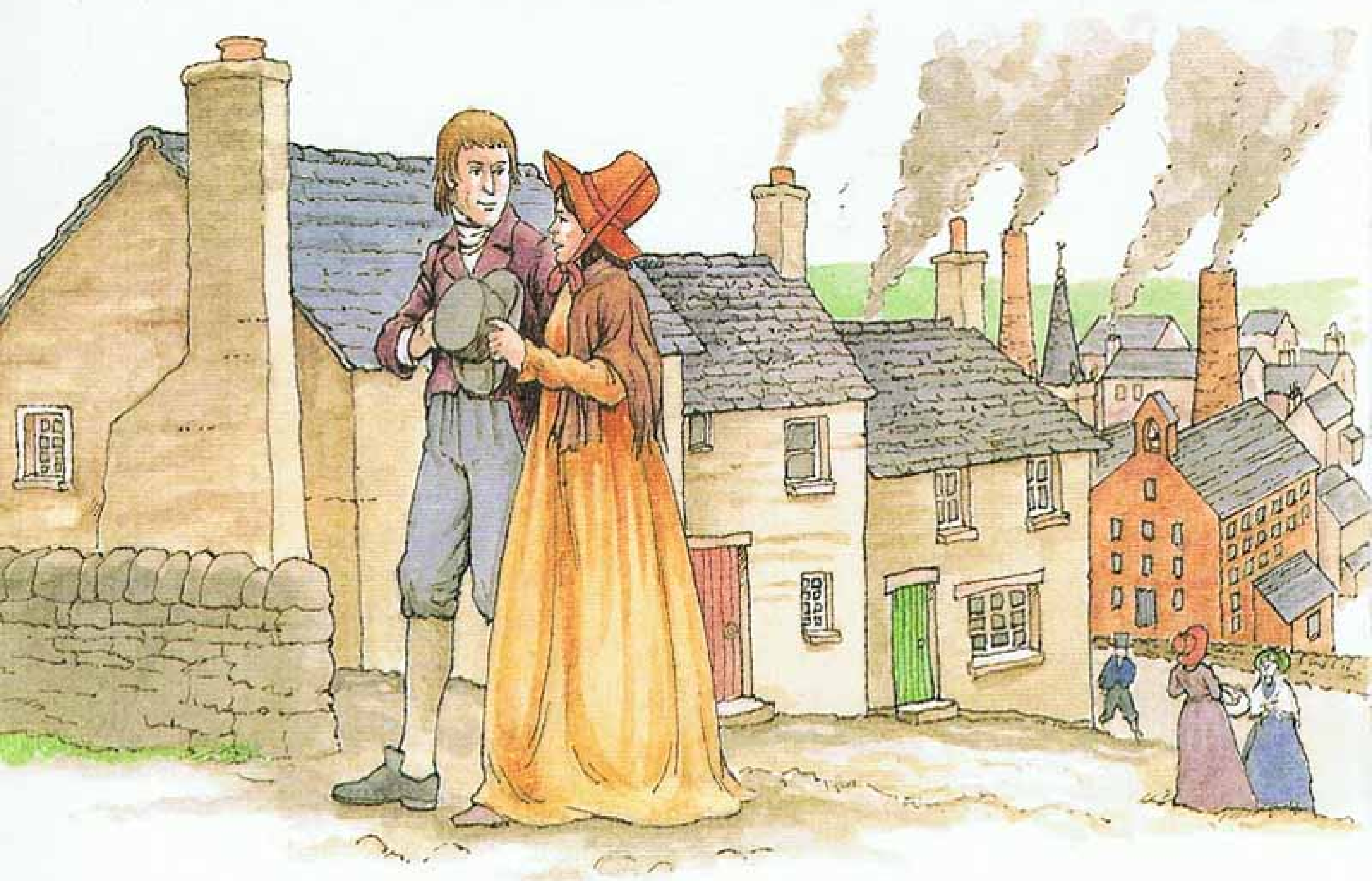
عِنْدَما نُشِرَ هٰذا الكِتابُ في الْعامِ ١٨٦٠ كانَتِ الْحَياةُ في إنكلترا تَمُرُّ في حِقْبَةٍ مِنَ التَّغَيُّرِ الْجَذْرِيِّ. فقد كانَتِ الثَّوْرَةُ الصِّناعِيَّةُ قد تَجَذَّرَتْ. وكانَ إنْشاءُ الْمَصانِعِ والْمَناجِمِ وسِكَكِ الْحَديدِ يَجْري على قَدَمٍ وساقٍ، فيَتَقاطَرُ النّاسُ جَماعاتٍ إلى الْمَراكِزِ الصِّناعِيَّةِ. وكانَ ذٰلكَ كُلُّهُ على حِسابِ الرِّيفِ وطَبيعَةِ الْحَياةِ فيه.

كانَتِ الْكاتِبَةُ جورج إلْيوت شَديدَةَ الاِهْتِمامِ بِهٰذِهِ التَّغَيُّراتِ. وإنَّ سايْلَس مارْنَر، بَطَلَ قِصَّتِها، يَعْكِسُ نَظْرَتَها إلى هٰذه التَّغَيُّراتِ الَّتي رَأَتْها تَدورُ حَوْلَها. يُبْرِزُ الْكِتابُ إبْرازًا جَلِيًّا الْمُفارَقَةَ بَيْنَ الْحَياةِ الْقَديمَةِ في الرِّيفِ وَالْحَياةِ الْجَديدَة في الْمَدينَةِ. الْمَدينَةُ، كَما تُصَوِّرُها الْقِصَّةُ، قاتِمَةٌ قابِضَةٌ لِلصَّدْرِ صاخِبَةٌ. إنَّها مَكانٌ لَيْسَ فيه حِسٌّ جَماعِيٌّ، لا يَعْرِفُ الْمَرْءُ فيه إلّا قِلَّةً مِنَ النّاسِ. أَمّا الْحَياةُ في الرِّيفِ، في الْمُقابِلِ، فَهِيَ حَياةُ سَلامٍ وَمَحَبَّةٍ واطْمِئْنانٍ. والْمُجْتَمَعُ هُناكَ مُتَراصٌّ مُتَحابٌّ، يَعْرِفُ الْواحِدُ فيه كُلَّ أَهْلِ قَرْيَتِهِ، وَيَمُدُّ يَدَ الْعَوْنِ لِلآخَرينَ في الأَوْقاتِ الْعَصيبَةِ.

تُمَيِّزُ إليوت في كِتابِها بَيْنَ النّاسِ الْعادِيِّينَ الّذينَ يَميلونَ بِطَبْعِهِمْ إلى الْمَوَدَّةِ وَحُبِّ الْمُساعَدَةِ، وإلى هٰؤُلاءِ يَدينُ بَطَلُ الْقِصَّةِ سايْلَس بِعَوْدَةِ الْحُبِّ وَالثِّقَةِ بِالْإِنْسانِ إلى قَلْبِهِ، وبَيْنَ الْأَثْرِياءِ الّذينَ تَراهُمْ مُتَعَجْرِفينَ وتَرى أنّهم مَسْؤولونَ عَمّا قد يُصيبُهُمْ من بُؤْسٍ وشَقاءٍ.

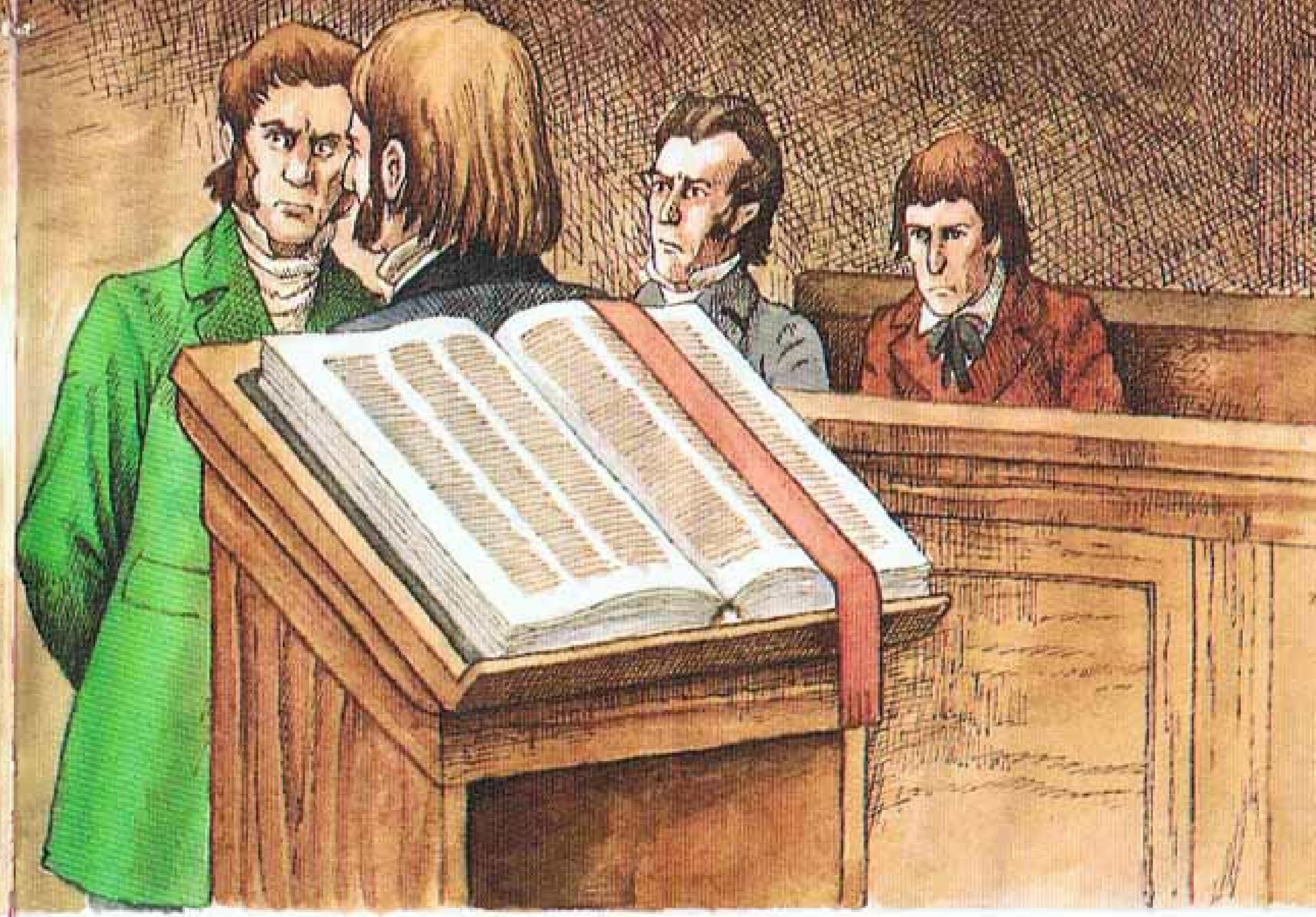
ولَعَلَّ ما تُرَكِّزُ عليه الْمُؤَلِّفَةُ من دِفْءِ الْعَلاقاتِ الْإِنْسانِيَّةِ، بِما فيها من قُوَّةٍ على تَغْيِيرِ الْإِنْسانِ، هو الّذي يَجْعَلُ من كِتابِ «سايْلَس مارْنَر» عَمَلًا أَدَبِيًّا أَثيرًا.





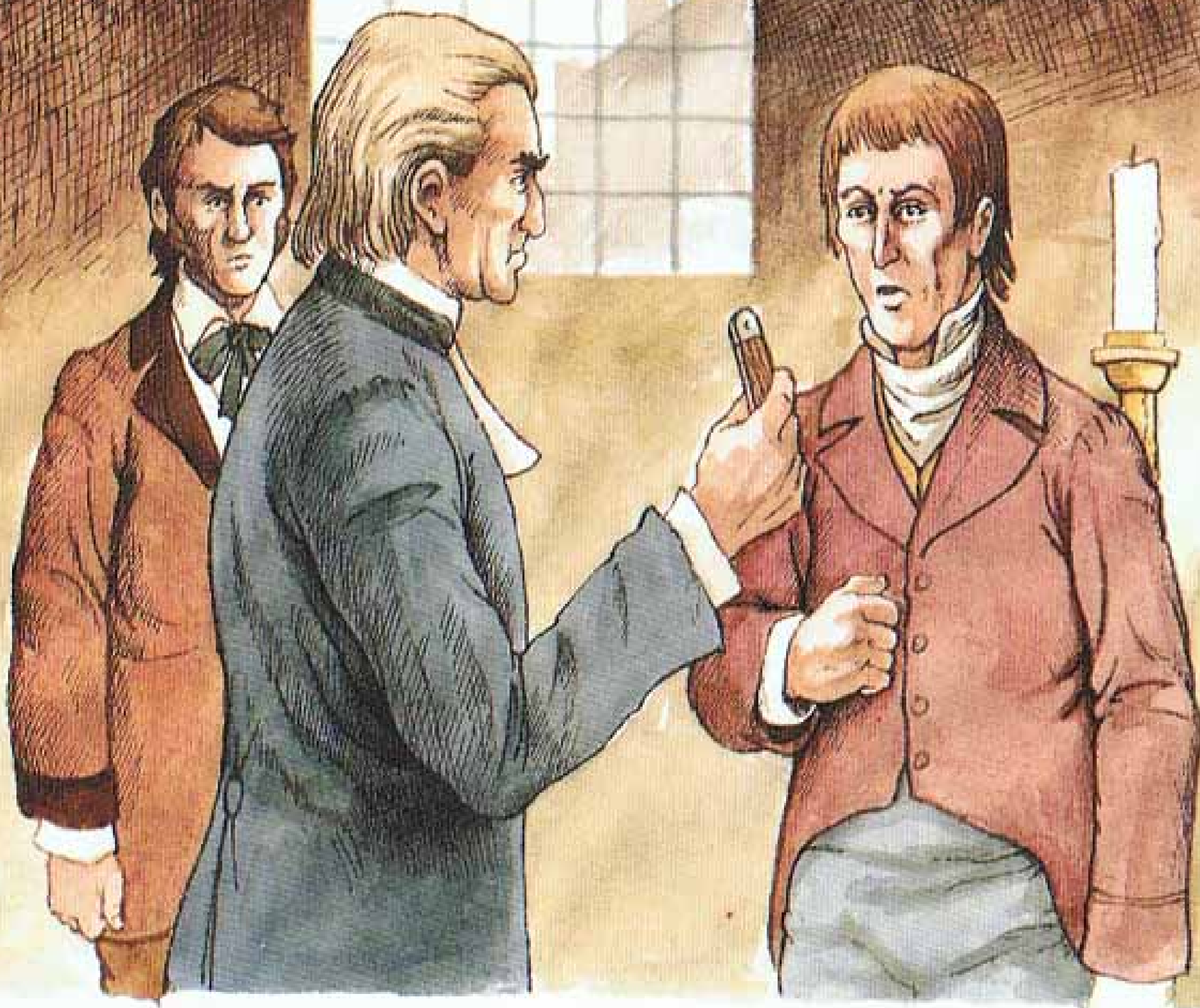
في أوائِلِ الْقَرْنِ التّاسِعَ عَشَرَ وَصَلَ سايْلَس مارْنَر، وكانَ حائِكَ نَسيجٍ ، إلى الرّيفِ لِيَعيشَ في كوخٍ قائِمٍ عِنْدَ طَرَفٍ من أَطْرافِ قَرْيَةِ راڤْلو. كان سايْلَس قد مَرَّ بِتَجْرِبَةٍ أَحْزَنَتْهُ وحَمَلَتْهُ على أنْ يَعيشَ وَحيدًا عيشَةَ اعْتِزالٍ.

كان سايْلَس يَعيشُ، في الْوَقْتِ الّذي مَرَّ فيه بِتَجْرِبَتِهِ الْمُحْزِنَةِ تِلْكَ، في مَدينَةٍ مُزْدَحِمَةٍ. وكانَ عِنْدَهُ أَصْدِقاءُ كُثُرٌ، وأَكْثَرُ من ذلِكَ كان قد خَطَبَ صَبِيَّةً لَطيفَةً وتَواعَدَ معها على الزَّواجِ في وَقْتٍ غَيْرِ بَعيدٍ.



حَدَثَ أَنْ مَرِضَ رَئِيسُ الْجَمْعِيَّةِ الْخَيْرِيَّةِ، الَّتي كان سايْلَس عُضْوًا من أَعْضائِها، مَرَضًا شَديدًا. فَذَهَبَ سايْلَس ذاتَ لَيْلَةٍ يَعودُهُ ويَسْهَرُ إلى جانِبِ سَريرِهِ. في تِلكَ اللَّيْلَةِ تُوُفِّيَ الرَّجُلُ. وفي اليَوْمِ التّالي، تَبَيَّنَ أَنَّ كيسَ مالِ الْجَمْعِيَّةِ قَدِ اخْتَفى مِنَ الْمَنْزِلِ. وسُرْعانَ ما اتُّهِمَ سايْلَس بِالسَّرِقَةِ، وذَهَبَ صَديقُهُ وِلْيَم دان، وهو عُضْوٌ في الْجَمْعِيَّةِ عَيْنِها، إلى مَنْزِلِهِ يَدْعوهُ إلى التَّحْقيقِ. وفي أَثْناءِ التَّحْقيقِ أَخْرَجَ رَئِيسُ الْجَمْعِيَّةِ سِكّينَ جَيْبِ سايْلَس، وقالَ إنّه وَجَدَهُ حَيْثُ كانَ كيسُ المالِ مُخَبَّأً. ذَهِلَ سايْلَس وقالَ: «سيُظْهِرُ اللهُ بَراءَتي. فَتِّشوني وفَتِّشوا مَنْزِلي. وِلْيَم دان يَعْلَمُ أَنَّكُمْ لن تَجِدوا عِنْدي إلّا الْقَليلَ الَّذي ادَّخَرْتُهُ طَوالَ هٰذِهِ السِّنينَ.»





قامَ وِلْيَم دان بِالتَّفْتيشِ فوَجَدَ كيسَ الْمالِ فارِغًا ومَحْشورًا وراءَ خِزانَةٍ في غُرْفَةِ نَوْمِ سايْلَس. فحَضَّ صاحِبَهُ على أَنْ يَعْتَرِفَ بِذَنْبِهِ.

قالَ سايْلَس: «يا وِلْيَم، مَرَّ على صَداقَتِنا تِسْعُ سَنَواتٍ، وأَنْتَ تَعْلَمُ أَنّي لا أَكْذِبُ. اللهُ سيُظْهِرُ بَراءَتي.»

بَدا وِلْيَم غَيْرَ مُقْتَنِعٍ بِما يَقولُهُ صَديقُهُ. ثُمَّ تَذَكَّرَ سايْلَس فَجْأَةً أَنَّ السِّكّينَ لم تَكُنْ مَعَهُ لَيْلَةَ سَهِرَ عِنْدَ سَريرِ الْمُحْتَضَرِ. وقد سَأَلَهُ الْمُحَقِّقونَ من أَعْضاءِ الْجَمْعِيَّةِ عَنِ الْمَوضِعِ الَّذي كان فيه السِّكّينُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فلم يَزِدْ على أَنْ قالَ: «لَنْ أَقولَ شَيْئًا. اللهُ سَيُبَرِّئُني.»

اِسْتَدْعى أَعْضاءُ الْجَمْعِيَّةِ الْخَيْرِيَّةِ سايْلَس إلى اجْتِماعٍ آخَرَ. قالَ أَمينُ سِرِّ الْجَمْعِيَّةِ إِنَّ الْأَعْضاءَ سيُدْلُونَ بِآرائِهِمْ حَوْلَ بَراءَةِ سايْلَس أو عَدَمِ بَراءَتِهِ في اقْتِراعٍ سِرِّيٍّ. وجاءَت نَتيجَةُ الِاقتِراعِ في غَيْرِ صالِحِهِ، فَقَدِ اتَّهَمَتْهُ كَثْرَةُ الْأَعْضاءِ بِسَرِقَةِ كيسِ الْمالِ. وَقَفَ أَمينُ السِّرِّ عِنْدَئِذٍ، وقالَ:

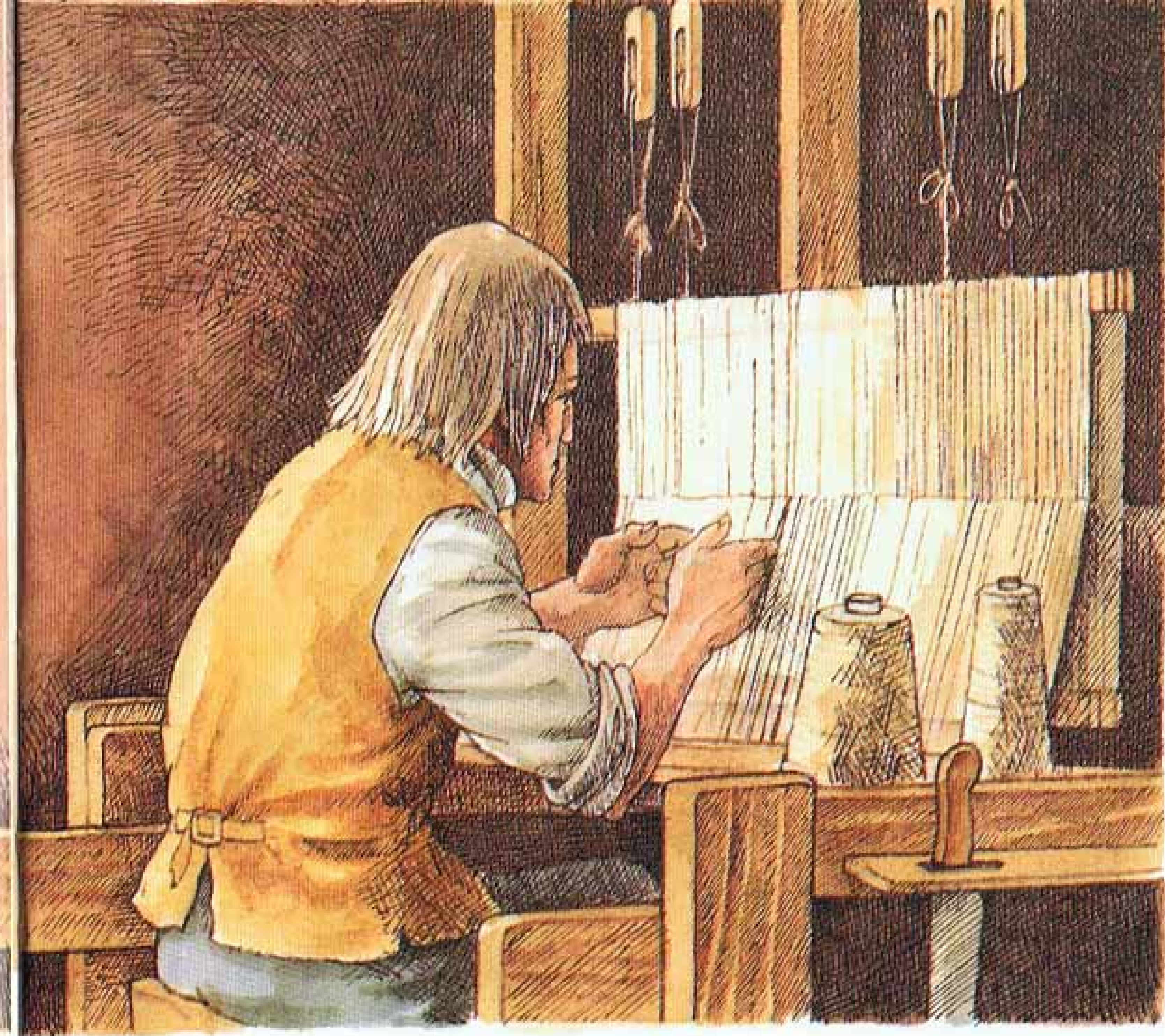
«إذا لم تُقِرَّ بِذَنْبِكَ وتُعِدْ كيسَ الْمالِ في الْحالِ، فأَنْتَ مَفْصولٌ من هٰذه الْجَمْعِيَّةِ الْمُوَقَّرَةِ.».

وَقَفَ سايْلَس عِنْدَئِذٍ ومَشى إلى وِلْيَم دان وقالَ لَهُ: «آخِرَ مَرَّةٍ اسْتَخْدَمْتُ فيها هذا السِّكّينَ كُنْتُ في مَنْزِلِكَ. لا أَذْكُرُ أنّي أَعَدْتُها إلى جَيْبي. أنت سَرَقْتَ كيسَ الْمالِ، ودَبَّرْتَ لي مَكيدةً تُوقِعُني فيها.»

قالَ وِلْيَم بِخُبْثٍ: «لَيْسَ عِنْدي إلّا أَنْ أَدْعُوَ اللهَ أنْ يَهْدِيَكَ.»

تَرَكَ سايْلَس الْمِسْكينُ الِاجْتِماعَ في يَأْسٍ ومَذَلَّةٍ، وقد تَزَعْزَعَتْ ثِقَتُهُ بِمَحَبَّةِ الْإِنْسانِ لِأَخيهِ الْإِنسانِ. ذَهَبَ إلى مَنْزِلِهِ، وأَقْفَلَ الْبابَ على نَفْسِهِ لا يُريدُ أنْ يُكَلِّمَ أَحَدًا. وفي الْيَوْمِ التّالي عادَ يَسْتَأْنِفُ عَمَلَهُ. لٰكِنَّ واحِدًا من أَعْضاءِ الْجَمْعِيَّةِ جاءَهُ بِرِسالَةٍ من خَطيبَتِهِ تَقولُ فيها إنّها تَفْسَخُ الْخِطْبَةَ. وبَعْدَ نَحْوِ شَهْرٍ فَقَطْ تَزَوَّجَتِ الصَّبِيَّةُ من وِلْيَم دان. أَدْرَكَ سايْلَس عِنْدَئِذٍ السَّبَبَ الّذي جَعَل صَديقَهُ السّابِقَ يَخونُ عَهْدَ الصَّداقَةِ. فلم يَحْتَمِلْ ذٰلِكَ، وغادَرَ الْمَدينَةَ بِقَلْبٍ مُثْقَلٍ. كان إيمانُهُ بِمَحَبَّةِ الْإِنْسانِ قد تَزَعْزَعَ، وهو إيمانٌ كانَ يَمْنَحُهُ دائِمًا الْقُوَّةَ والِاطْمِئْنانَ، وبَدا له أَنَّ حَياتَهُ قد تَغَيَّرَتْ وأنّه لن يَشْعُرَ بِمِثْلِ تِلْكَ الْقُوَّةِ أو ذٰلِكَ الِاطْمِئْنانِ بَعْدَ الْيَومِ.

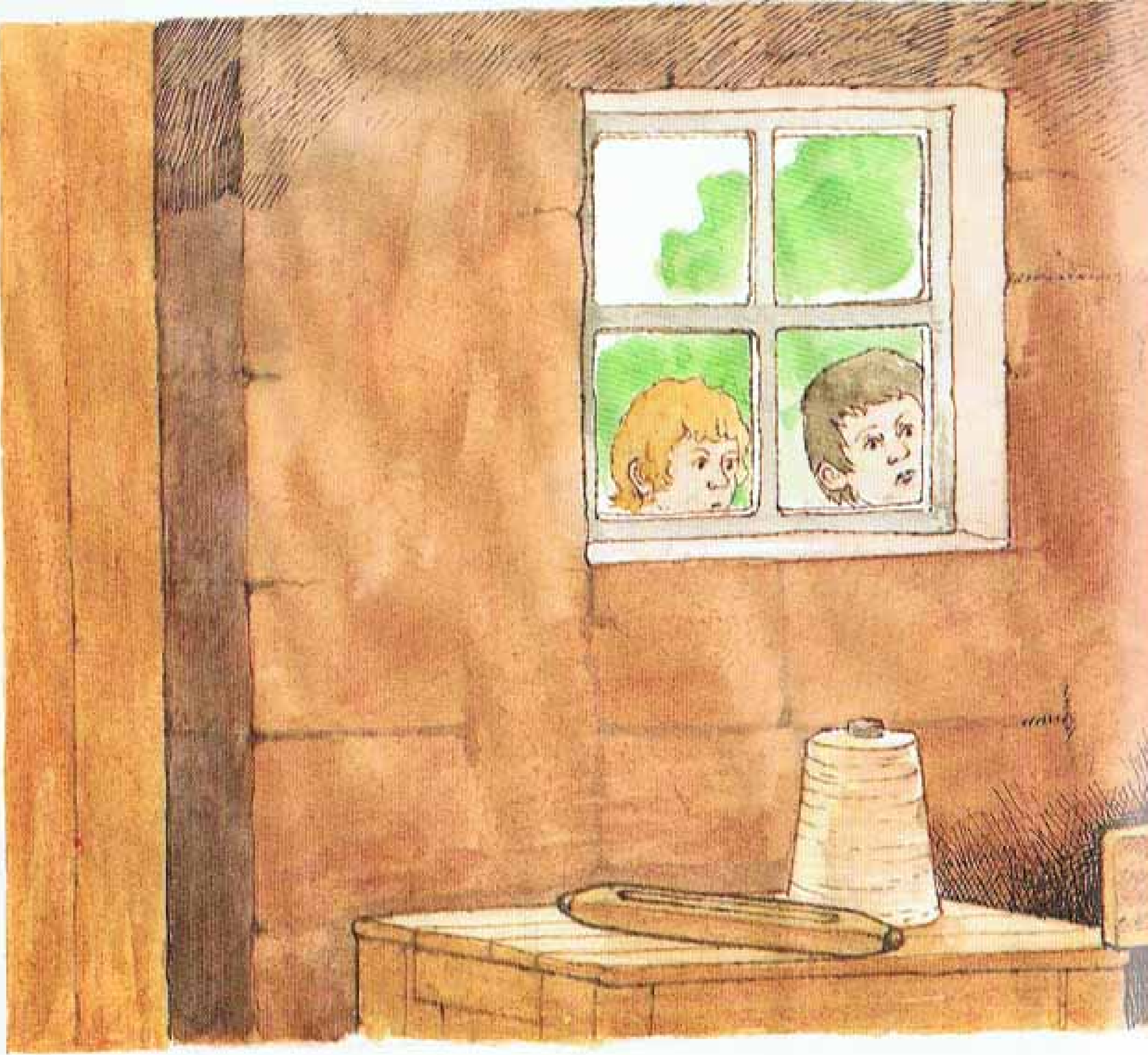




كان الْقَرَوِيّونَ من أَهْلِ راڤْلو يَخْتَلِفونَ كُلَّ الاِخْتِلافِ عن سُكّانِ الْمَدينَةِ الّتي هَجَرَها سايْلَس. فقد كانوا يَعيشونَ عيشَةَ دَعَةٍ واطْمِئْنانٍ، وكانت أَرْضُهُم طَيِّبَةً خَيِّرَةً.

نَصَبَ سايْلَس نَوْلَهُ وراحَ يُجْهِدُ نَفْسَهُ بِالْعَمَلِ، مُسْتَغْرِقًا فيه بِكُلِّ جَوارِحِهِ. كان يَنْسِجُ لِنِساءِ الْقَرْيَةِ الْأَقْمِشَةَ الْكَتّانِيَّةَ ويَتَقاضى لِقاءَ ذٰلك ذَهَبًا. أَمّا في الْمَدينَةِ حَيْثُ كان يَعْمَلُ من قَبْلُ، فقد كان يَتَقاضى راتِبًا أُسْبوعِيًّا زَهيدًا، يَذْهَبُ جُلُّهُ إلى الْفُقَراءِ والْمُحْتاجينَ. لقد وَجَدَ الْآنَ مُتْعَةً في اقْتِناءِ الذَّهَبِ وتَقْليبِ قِطَعِهِ الْبَرّاقَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ.





حَرَصَ سايْلَس على أَنْ يَبْتَعِدَ عن أَهْلِ الْقَرْيَةِ، ولم يُحاوِلْ أَنْ يَتَعَرَّفَ إلى أَيٍّ منهم. أَمّا هم فقد كانوا يَرْتابونَ بِالْغُرَباءِ، وكانوا يَخْشَوْنَ سايْلَس، ويَخْشَوْنَ خُصوصًا نَوْلَهُ الّذي بَدا لهم مُسْتَغْرَبًا. وقد دَأَبَ الْأَوْلادُ على اسْتِراقِ النَّظَرِ إلى نَوْلِهِ من خِلالِ الشُّبّاكِ. لكنّهم كانوا يُسْرِعونَ إلى الْفِرارِ إذا الْتَفَتَ إليهم أو إذا فَتَحَ بابَ مَنْزِلِهِ اتِّفاقًا. لم يكونوا يَعْلَمونَ أَنّ عَمَلَهُ على النَّوْلِ لَيْلًا ونَهارًا قد أَضْعَفَ بَصَرَهُ، وأَنّهُ كان إذا وَقَعَ بَصَرُهُ عليهم يَكادُ لا يَراهُمْ.

حَدَثَ ما جَعَلَ الْقَرَوِيّينَ يَزْدادونَ تَجَنُّبًا لِسايْلَس وعَجَبًا منه. فقدِ اتَّفَقَ أنْ رَآهُ صَيّادُ الْخُلْدانِ جِم رُدْني يَسْتَنِدُ إلى سِياجٍ ويَحْمِلُ على ظَهْرِهِ كيسًا، لٰكِنَّه بَدا مُتَصَلِّبَ الْقَسَماتِ غائِبًا عَنِ الْوَعْيِ. قالَ جِم إنّه خاطَبَ سايْلَس فلم يَحْظَ بِجَوابٍ وهَزَّهُ ولٰكِنْ على غَيْرِ طائِلٍ.

ثمّ إنّ سايْلَس صَحا فَجْأَةً من غَيْبوبَتِهِ وزايَلَهُ تَصَلُّبُ قَسَماتِهِ، وتَمْتَمَ مُحَيِّيًا ومَضى. لم يَكُنِ جِم لِيَعْلَمَ أنّ مِثْلَ تِلْكَ النَّوْباتِ كانت تُلازِمُ سايْلَس مُنْذُ أنْ كان طِفْلًا.

مِمّا زادَ في جَوِّ الْغُموضِ الّذي يُحيطُ به أنّه كان ذا مَعْرِفَةٍ بما لِبَعْضِ الْأَعْشابِ الطِّبِّيَّةِ من أَثَرٍ في شِفاءِ بَعْضِ الْأَمْراضِ. وقد وَصَفَ يَوْمًا دواءً عُشْبِيًّا لِزَوْجَةِ إسْكافِيِّ الْقَرْيَةِ الّتي كانت تُعاني من عِلَّةٍ في قَلْبِها فتحَسَّنَتْ حالُها.

ولمّا رَأى الْقَرَوِيّونَ ما كان من نَتيجَةِ عِلاجِهِ، راحوا يُلاحِقونَهُ طالِبينَ منه أنْ يَشْفِيَهُمْ من أَمْراضٍ مُسْتَعْصِيَةٍ، وواعِدينَ أنْ يُجْزِلوا له، لِقاءَ ذٰلِكَ، الْعَطاءَ.

لكنّ سايْلَس بِأَمانَتِهِ الْمَعْهودَةِ لم يَشَأْ أنْ يَخْدَعَهُمْ ويَأْخُذَ مالَهُمْ. وقد أَساءَ الْقَرَوِيّونَ فَهْمَ امْتِناعِهِ عن إعْطائِهِم الْأَعْشابَ الّتي يَطْلُبونَ، فَظَنّوا أنّه فَعَلَ ذٰلِكَ لِعَدَمِ رَغْبَتِهِ في مُساعَدَتِهِمْ، فازْدادوا نُفورًا منه. حتّى الْأَطْفالُ كانوا يَتَجَنَّبونَهُ، وعلى الرُّغْمِ من أنه لم يَكُنْ قد بَلَغَ الْأَرْبَعين من عُمْرِهِ بَعْدُ، فقد كانوا يُسَمّونَهُ «سايْلَسَ الْعَجوزَ».



هٰكذا، كان سايْلَس يَزْدادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ اسْتِغْراقًا في عَمَلِهِ، ويَزْدادُ بَصَرُهُ ضَعْفًا. كما كان يَزْدادُ تَعَلُّقًا بِمالِهِ، ويَصْرِفُ أُمْسِياتِهِ يُقَلِّبُ قِطَعَهُ الذَّهَبِيَّةَ الّتي كانت تَتَزايَدُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ. وقد أَعَدَّ لِلذَّهَبِ مَكانًا آمِنًا يُخْفيهِ فيه. فقد نَزَعَ من أَرْضِ الْمَنْزِلِ حَجَرَيْنِ وحَفَرَ حُفْرَةً تَتَّسِعُ لِكيسَيْنِ كَبيرَيْنِ يَضَعُ فيهما ذَهَبَهُ. وكان إذا انْتَهى كُلَّ لَيْلَةٍ من تَقْليبِ ذَهَبِهِ، أَعادَ الْكيسَيْنِ إلى مَخْبَئِهِما وغَطّاهُما بِالحَجَرَيْنِ. لم يَعُدْ سايْلَس يُفَكِّرُ إلّا بِذَهَبِهِ ونَوْلِهِ. لم يَعُدْ يُفَكِّرُ إلّا بِهِما حتّى في أَثْناءِ انْتِقالِهِ في الْحُقولِ حامِلًا الْمَنْسوجاتِ الّتي حاكَها إلى أَصْحابِها.



كان مُقَدَّرًا أَنْ يَحْدُثَ في حَياةِ سايْلَس تَغَيُّرٌ مُفاجِئٌ. وكان مُقَدَّرًا لِذٰلِكَ التَّغَيُّرِ أَنْ يُقَرِّبَ سايْلَس من جيرانِهِ وأَنْ يُعيدَ إليه ثِقَتَهُ الْمَفْقودَةَ بِبَني البَشَرِ.

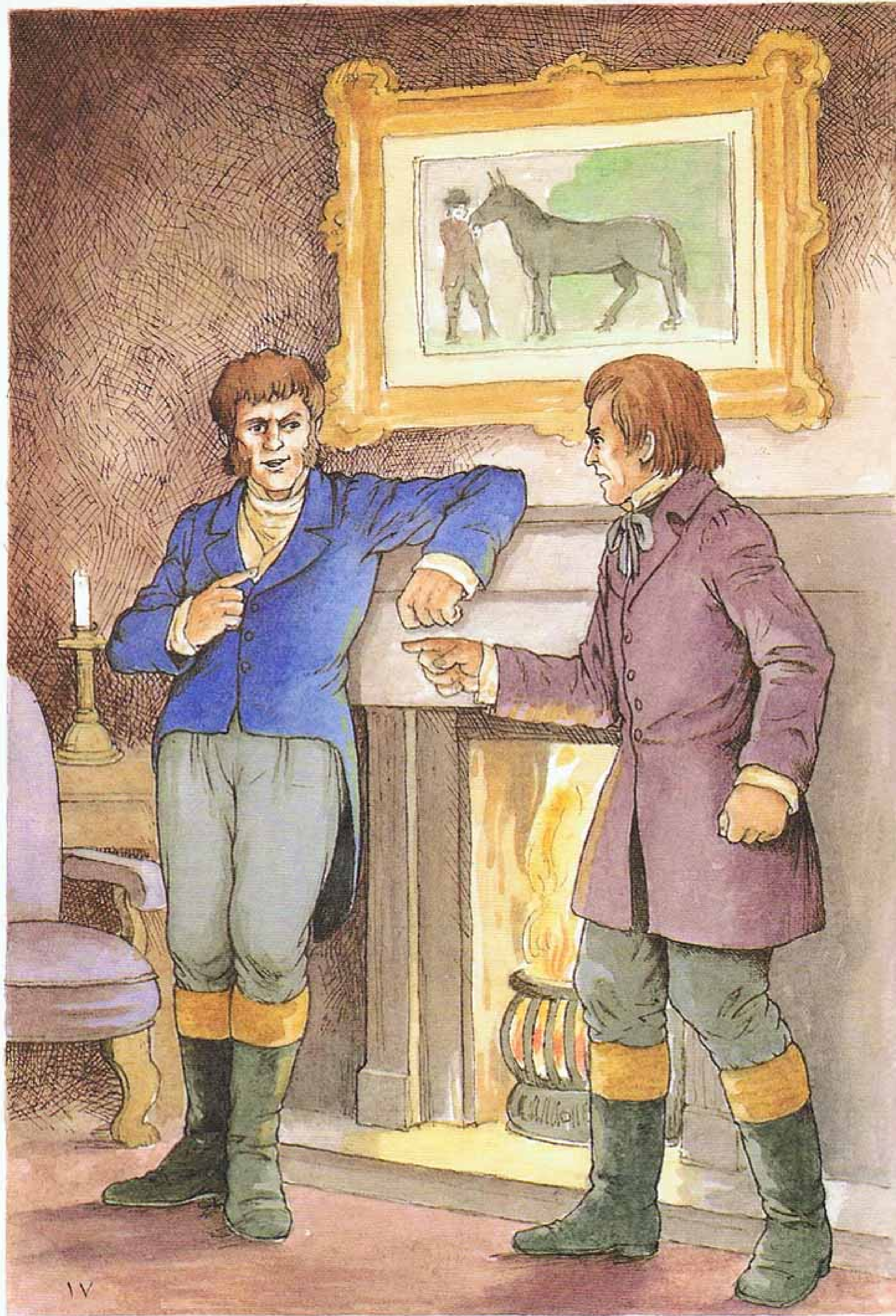
كانَ السَّيِّدُ كاس نبيلًا من نُبلاءِ الْبِلادِ. كان يَعيشُ في مَنْزِلٍ واسِعٍ في وَسَطِ قَرْيَةِ راڤلو. وكان ذا مُمْتَلَكاتٍ ومَزارِعَ يُؤَجِّرُها لِبَعْضِ الْمُزارِعينَ.

كانت زَوْجَتُهُ قد تُوُفِّيَتْ قَبْلَ سَنَواتٍ، ونَتَجَ عن ذٰلِكَ أنْ أَهْمَلَ الْعِنايَةَ بِمَنزِلِهِ وتَرْبِيَةِ وَلَدَيْهِ، غودْفري ودانسْتَن. وقد نَشَأَ الْأَصْغَرُ دانسْتَن نَشْأَةً خامِلَةً، وكانَ عِرْبيدًا بَغيضًا ذا نَفْسٍ أَمّارَةٍ بِالسّوءِ. أَمّا الْأَكْبَرُ غودْفري فقد كان وَديعًا لَطيفًا، فَأَحَبَّهُ النّاسُ وأَسعَدَهُمْ أنْ يكونَ هو وارِثَ أَبيهِ، وتَمَنَّوْا أَلّا يُضَيِّعَ فُرْصَةَ الزَّواجِ مِنَ الصَّبِيَّةِ الْحَسْناءِ نانْسي، ابْنَةِ أَحَدِ الْمُزارِعينَ. غَيْرَ أَنَّ أَعْظَمَ أُمْنِياتِهِمْ كانت أَلّا يُحاكِيَ في يَوْمٍ مِنَ الْأَيّامِ شَقيقَهُ الْبَغيضَ دانسْتَن.

في أَحَدِ الْأَيّامِ، وَقَفَ غودْفري في انْتِظارِ أَخيهِ الْأَصْغَرِ، وقد بَدا عليه اسْتِياءٌ بالِغٌ. ثمّ سَمِعَ خُطُواتِ أَخيهِ فاسْتَدارَ يُواجِهُهُ.

بَدَأَ دانسْتَن الْحَديثَ، فقالَ بِلَهْجَةٍ ساخِرَةٍ: «ماذا يُريدُ منّي السَّيِّدُ غودْفري؟»

قالَ غودْفري بِحَزْمٍ: «اِفْتَحْ أُذُنَيْكَ جَيِّدًا يا دانسْتَن. عَلَيَّ أنْ أُعْطِيَ أبي أُجورَ الْمُزارِعينَ الّتي أَخَذْتَها منّي. أَوْضَحَ لي أبي أنّه سيُقاضي الْمُزارِعينَ هٰذِهِ الْمَرَّةَ إذا لم يَسْتَلِمْ منهم أُجورَهُمْ. ولم أُخْبِرْهُ أنّ الْمُزارِعينَ قد دَفَعوا وأنّك أنْتَ الّذي أَخَذْتَ الْمالَ. لو عَلِمَ أنّك أَخَذْتَ الْمَزيدَ من مالِهِ، فلا شَكَّ أنّه سيُنَفِّذُ هٰذه الْمَرَّةَ وَعيدَهُ ويَطْرُدُكَ مِنَ الْبَيْتِ.»



اِبْتَسَمَ دانسْتَن ابْتِسامَةَ مُسْتَهْزِئٍ، وقالَ: «أنت مُخطِئٌ. فلا يَمْنَعُني من أنْ أَفْضحَ أَمْرَكَ أَمامَ أَبي غَيْرُ قَلْبي الطَّيِّبِ. ما الّذي سيَقولُهُ أبي إذا عَلِمَ أنّك مُتَزَوِّجٌ سِرًّا من تِلْكَ الْمَرْأَةِ الْمُدْمِنَةِ مولي؟ ذٰلِكَ سيُحْزِنُهُ كَثيرًا ويُغْضِبُهُ. أَحْسَبُ أنّه سَيَحْرِمُكَ عِنْدَها مِنَ الْميراثِ. فَعَجِّلْ وادْفَعْ من جَيْبِكَ أُجورَ الْمُزارِعينَ.»

– أَنْتَ تَرْتَكِبُ الْحَماقاتِ وأَنا أَدْفَعُ ثَمَنَها؟

– بَلْ تَدْفَعُ ثَمَنَ سُكوتي على سِرِّكَ!

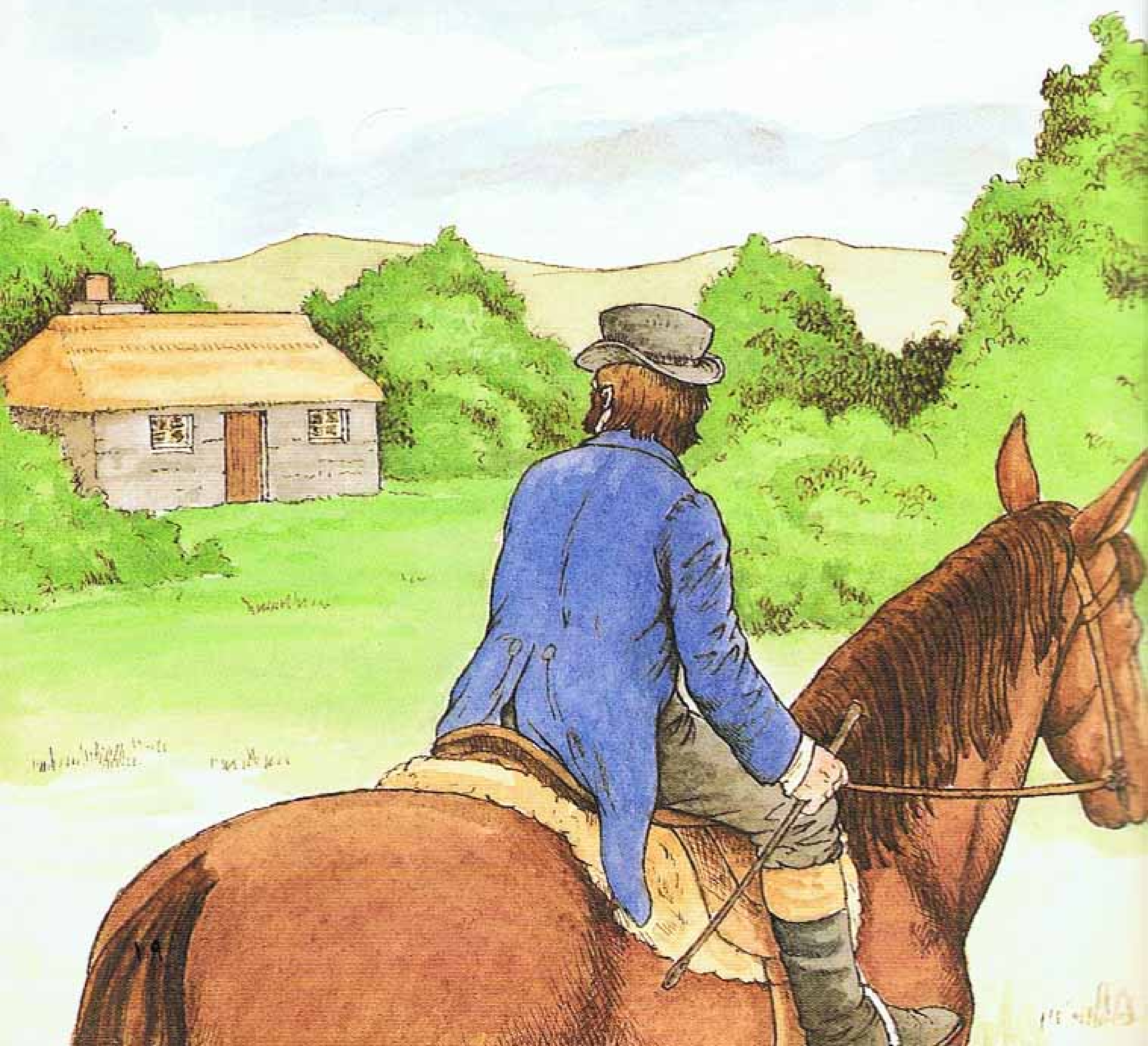
بَدا الْيَأْسُ على غودْفري، ثُمَّ قالَ: «من أَيْنَ آتي بِالْمالِ؟»

«بِعْ حِصانَكَ! إنّه حِصانٌ أَصيلٌ. ثَمَنُهُ يُغَطّي أُجورَ الْمُزارِعينَ الّتي أَخَذْتُها. ما عليكَ إلّا أنْ تُسَلِّمَني الْحِصانَ فَأَذْهَبَ به غَدًا إلى الصَّيْدِ. هُناكَ سَيَلْتَقيني مَنْ يَعْرِضُ عَلَيَّ شِراءَهُ.»

أَحسَّ غودْفري بِمَرارَةٍ بالِغَةٍ ونَظَرَ إلى أَخيهِ نَظْرَةَ احْتِقارٍ. كان حِصانُهُ عَزيزًا جِدًّا على قَلْبِهِ، لٰكِنّه كان يَخافُ أنْ يَعْرِفَ أَبوهُ بِزَواجِهِ من مولي. كانت مولي فتاةً جَميلَةً، لٰكنّها وَقَعَتْ في شَرَكِ الْإِدمانِ. وحتّى هي راحَت تُهَدِّدُ غودْفري بِكَشْفِ أَمْرِ زَواجِها منه أَمامَ أبيهِ. كان غودْفري يائِسًا، ولم يَجِدْ بُدًّا من أنْ يَخْضَعَ لِطَلَبِ أَخيهِ دانسْتَن، فسَلَّمَهُ الْحِصانَ.

قادَ دانسْتَن حِصانَ أخيهِ وقَدْ بَدَتْ عَلى وَجْهِهِ عَلامَةُ انْتِصارٍ.

في الْيَوْمِ التّالي بَكَّرَ دانسْتَن كاس في التَّوَجُّهِ إلى الصَّيْدِ. مَرَّ في طَرِيقِهِ بِكوخِ سايْلَس مارْنَر، فَخَطَرَ له أنّ ذٰلك الْحائِكَ الْعَجوزَ لا بُدَّ يُخَبِّئُ في مَكانٍ ما مَبْلَغًا كَبيرًا مِنَ الْمالِ، وأنّه لن يَصْعُبَ على غودْفري أنْ يَقْتَرِضَ منه الْمالَ الْمَطْلوبَ إقْناعًا أو إرْهابًا. لٰكنّه أَبْعَدَ عنه هٰذِهِ الْخَواطِرَ وتابَعَ طَريقَهُ.





لم يَجِدْ دانسْتَن صُعوبَةً في بَيْعِ الْحِصانِ بِمَبْلَغٍ يَزيدُ عَمّا هو مَطْلوبٌ. ولٰكِنْ كان عليه أنْ يَقودَ الْحِصانَ إلى إسْطَبْلِ الشّاري حَيْثُ يَتَلَقّى هناك ثَمَنَهُ. رأى دانسْتَن في ذٰلِكَ فُرْصَةً يُمَتِّعُ فيها نَفْسَهُ بِرُكوبِ ذٰلِكَ الْجَوادِ الرّائِعِ ، فَعَزَمَ على أنْ يَشْتَرِكَ في الصَّيْدِ. وسُرْعانَ ما وَجَدَ نَفْسَهُ في مُقَدَّمَةِ الْفُرْسانِ، يَقْطَعُ معهُم الْوِهادَ والْآكامَ ويَقْفِزُ فَوْقَ الْأَسيجَةِ والْحَواجِزِ. على أَنَّه وَجَدَ نَفْسَهُ بَعْدَ حينٍ يَتَأَخَّرُ عَنْهُم، فَقَدْ اضْطَرَّ إلى التَّوَقُّفِ لِيُصَحِّحَ وَضْعَ رِكابِهِ.



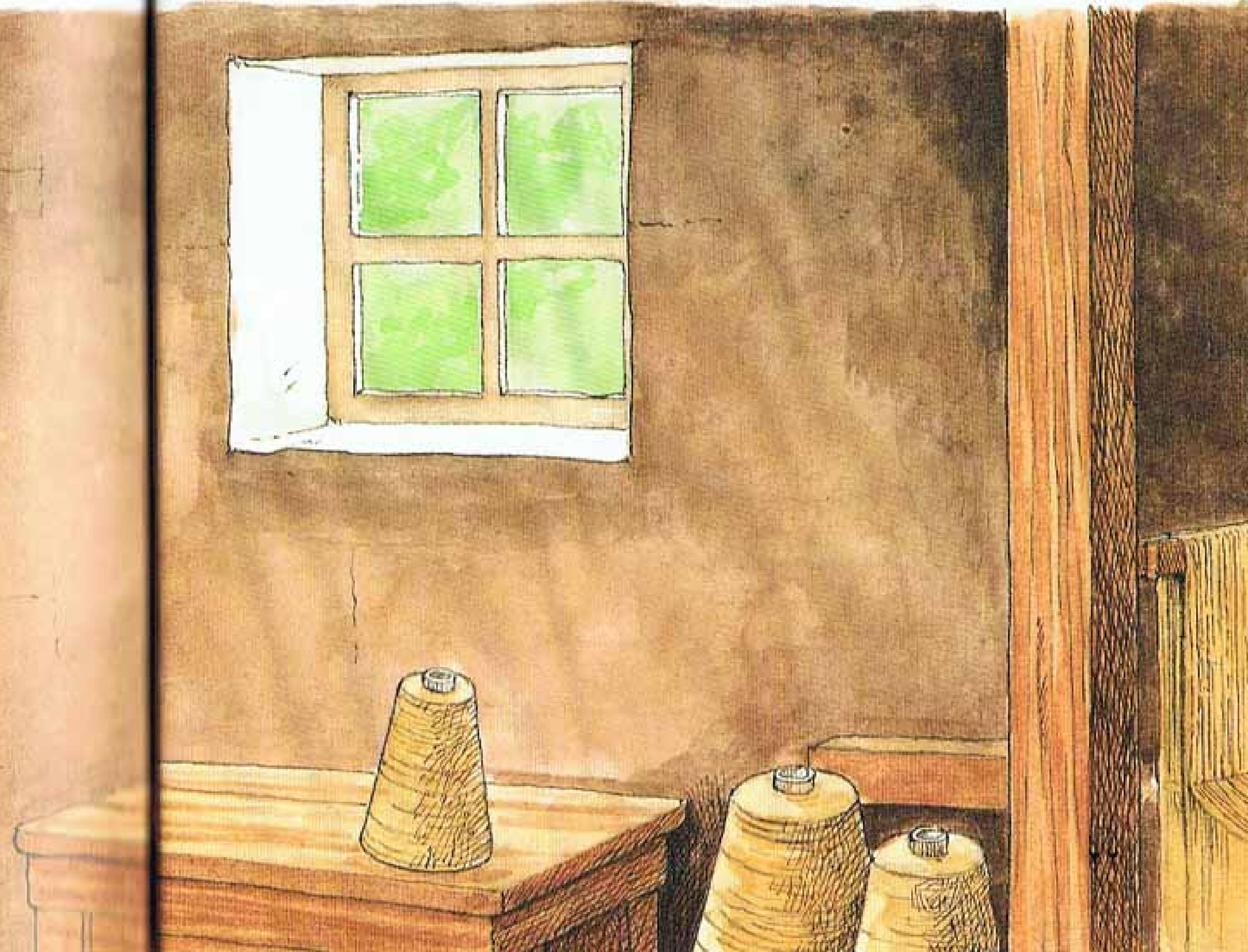


كان دانسْتَن مُتَلَهِّفًا لِلَّحاقِ بالفُرْسانِ، فَقَفَزَ فَوْقَ سِياجٍ عالٍ قَفْزَةً مُتَهَوِّرَةً، وكان أنْ وَقَعَ الْجَوادُ على خَشَبِ السِّياجِ وهَلَكَ.

لم يُصَبْ دانسْتَن بأذًى. تَلَفَّتَ حَوْلَهُ فلم يَجِدْ أحَدًا قَريبًا منه يَشْهَدُ على ما حَدَثَ. بَدا عليه الاِطْمِئْنانُ، فَنَفَضَ ثِيابَهُ ومَشى وَسْطَ غِلالَةٍ مِنَ الضَّبابِ، وفي يَدِهِ سَوْطُ غودْفري الّذي يَحْمِلُ اسْمَهُ مَنْقوشًا على مُسْكَتِهِ الذَّهَبِيَّةِ.

بَيْنَما كان دانسْتَن يَمْشي في الْبَرِّيَّةِ عادَ إليه خاطِرُ الْمالِ الّذي لا بُدَّ أنَّ الْحائِكَ يُخَبِّئُهُ. لَمَحَ وَسْطَ الظَّلامِ بَصيصًا من نورٍ، فقَدَّرَ أنّه صادِرٌ عن الْكوخِ. اِتَّجَهَ صَوْبَهُ، وقد عَزَمَ على أنْ يَطْلُبَ من صاحِبِ الْكوخِ قِنْديلًا يُساعِدُه على اجْتِيازِ الْبَرِّيَّةِ، ولَعَلَّهُ يُقْنِعُهُ أيْضًا بِأَنْ يُقْرِضَهُ بَعْضَ ما يُخَبِّئُهُ من مالٍ.

وَصَلَ إلى الْكوخِ وقَرَعَ الْبابَ بِمُسْكَةِ السَّوْطِ قَرْعًا شَديدًا. لٰكِن لم يَتَلَقَّ جَوابًا. فقَرَعَ مَرَّةً أُخْرى. ولَمّا لم يَتَلَقَّ هٰذه الْمَرَّةَ أيْضًا جوابًا، دَفَعَ الْبابَ فانْفَتَحَ. كان الْكوخُ مُضاءً ونارُ الْمَوْقِدِ مُسْتَعِرَةً، ولٰكِن لم يَكُنْ في الْكوخِ أَحَدٌ.





دارَتِ الْأَفْكارُ في رَأْسِ دانسْتَن، ثمّ قالَ في نَفْسِهِ: «لَعَلَّ الْحائِكَ وَقَعَ بَيْنَ الصُّخورِ وماتَ. فعَزَمَ على أنْ يُفَتِّشَ الْكوخَ. فَتَّشَ أَوَّلًا في السَّريرِ، ثمّ راحَ يَبْحَثُ في الْأَرْضِ عن حُفْرَةٍ أو أَثَرٍ لِمَخْبَإٍ.

رَأى إلى جانِبِ النَّوْلِ أَثَرًا أَدْرَكَ من فَوْرِهِ أنّه هو ما يَبْحَثُ عنه. فقد بَدا الرَّمْلُ الّذي يُغَطّي الْأَرْضَ في تلك الْبُقْعَةِ وكأنّما عَبَثَتْ به يَدٌ. أَزاحَ الرَّمْلَ ورَفَعَ حَجَرَيْنِ، فإذا أَمامَهُ كيسانِ جِلْدِيّانِ يَحْوِيانِ ذَهَبًا. رَفَعَ الْكيسَيْنِ، وأَعادَ الْحَجَرَيْنِ إلى مَوْضِعِهِما وعادَ فغَطّاهُما بِالرَّمْلِ. ثمّ حَمَلَ كيسَي الذَّهَبِ والسَّوْطَ وخَرَجَ يَمْشي في الظَّلامِ.



ما هي إلّا لَحظاتٌ حتّى كانَ الْحائِكُ قد عادَ إلى مَنْزِلِه، يَحْمِلُ كيسًا مِنَ الْخُيوطِ، اسْتِعدادًا لِعَمَلِ الْيَوْمِ التّالي.

كان مُطْمَئِنًّا. لا يُساوِرُهُ شَكٌّ أبدًا. وَضَعَ كيسَهُ وطاقِيَّتَهُ جانِبًا وجَلَسَ أَمامَ النّارِ يَسْتَدْفِئُ. رَأى بَعْدَ هُنَيْهَةٍ أنْ يَضَعَ ذَهَبَهُ على مائِدَةِ الطَّعامِ أمامَهُ لِيُمَتِّعَ نَظَرَهُ به في أَثْناءِ تَناوُلِهِ الْعَشاءَ. نَهَضَ ووَضَعَ شَمْعَتَهُ إلى جانِبِ النَّوْلِ، وأَزاحَ الرَّمْلَ ورَفَعَ الْحَجَرَيْنِ. فإذا مَخْبَأُهُ فارِغٌ.

لم يُصَدِّقْ عَيْنَيْهِ. راحَ يَنْتَفِضُ انْتِفاضًا عَنيفًا، وَيَتَحَسَّسُ بِيدَيْهِ الاِثْنَتَيْنِ داخِلَ الْحُفْرَةِ وجَوانِبَها.

لقد ذَهَبَ الشَّيْءُ الْوَحيدُ في هٰذِهِ الدُّنْيا الّذي يَجِدُ فيه الرّاحَةَ والاِطْمِئْنانَ. وَضَعَ يَدَيْهِ الْمُرْتَجِفَتَيْنِ على رَأْسِهِ وصَرَخَ صَرْخَةً مُدَوِّيَةً مُفْجِعَةً.

ثمّ لَمَعَ في رَأْسِهِ خاطِرٌ. إذا وَقَعَ اللِّصُّ في يَدِ الْعَدالَةِ فَسوْفَ يَعودُ ذَهَبُهُ إليه. راحَ يَسْتَعْرِضُ في مُخَيِّلَتِهِ الْأَشْخاصَ الّذينَ يَعْرِفُهُمْ واحِدًا واحِدًا.

فَجْأَةً مَثُلَ أَمامَ مُخَيِّلَتِهِ جِم رُدْني، صَيّادُ الْخُلْدانِ. فَقَدْ كانَ جِم يَتَرَدَّدُ على الْحُقولِ، وقَدْ سَأَلَ سايْلَس مَرَّةً عَنِ الثَّرْوَةِ الّتي لا بُدَّ أنّه جَمَعَها. فعَزَمَ سايْلَس على أنْ يَمْضِيَ من فَوْرِهِ إلى الْقَرْيَةِ لِلتَّبْليغِ عَنِ السَّرِقَةِ، فلا شَكَّ أنّه سَيَجِدُ الْعَوْنَ عِنْدَ الْعُمْدَةِ أوِ الْمَخْفَرِ أوِ النَّبيلِ كاس. اِنْدَفَعَ خارِجًا من كوخِهِ ومَضى في الظَّلامِ مُخَلِّفًا الْبابَ مَفْتوحًا.





كانَ نَفَرٌ من الْقَرَوِيّينَ قَدِ الْتَقَوْا في خانِ الْقَرْيَةِ يَتَجاذَبونَ أَطْرافَ الْحديثِ. جاؤوا على ذِكْرِ الْأَشْباحِ، وبَيْنَما هم في حَديثِهِمْ دَخَلَ عليهم سايْلَس، وكانَ شاحِبَ الْوَجْهِ شُحوبَ الْأَمْواتِ، زائِغَ الْبَصَرِ، لا يَقْوى على الْكَلامِ. فبَدا لهم وكأَنَّه شَبَحٌ من تِلْكَ الْأَشْباحِ الّتي كانوا يَرْوون حِكاياتِها، وتَذَكَّروا ما كان يُرْوى عنه هو أَيْضًا من حِكاياتٍ.

كان صاحِبُ الْخانِ أَوَّلَ مَنْ صَحا من ذُهولِهِ، فتقَدَّمَ منه بِهَيْئَةٍ وُدِّيَّةٍ، وقالَ له: «ما بِكَ؟ ما الّذي جاءَ بِكَ؟»

صاحَ سايْلَس بِصَوْتٍ مُخْتَنِقٍ: «سَرَقوني! سَرَقوني! أُريدُ عَوْنَ الْمَخْفَرِ، وَالْعُمْدَةِ، والنَّبيلِ كاس!»

بَدا سايْلَس وكأنّه يَهْذِرُ، فظَنَّ صاحِبُ الْخانِ أنّ الرَّجُلَ فَقَدَ عَقْلَهُ. كان سايْلَس يَتَطَلَّعُ بِذُعْرٍ في وُجوهِ الْقَرَوِيّينَ فرأى أمامَهُ جِم رُدْني.

مَدَّ يَدَيْهِ، وقالَ مُتَوَسِّلًا: «إنْ كُنْتَ أنت الّذي سَرَقْتَ مالي، رُدَّهُ إلَيَّ ولنْ أَتَّهِمَ عليك. رُدَّ إليَّ مالي فَأُعْطِيَكَ جُنَيْهًا ذَهَبِيًّا.»

أغْضَبَتْ هٰذه التُّهْمَةُ صَيّادَ الْخُلْدانِ إغْضابًا شَديدًا، فأَسْرَعَ صاحِبُ الْخانِ يُصْلِحُ الْحالَ، وأَمْسَكَ سايْلَس من كَتِفِهِ، وقالَ له:

«اِجْلِسْ واشْرَحْ لنا بِهُدوءٍ ما جَرى. وجَفِّفْ في هٰذه الْأَثْناءِ ثِيابَكَ، فإنّك تُشْبِهُ في هَيْئَتِكَ هٰذه جُرَذًا غَريقًا. الْآنَ احْكِ لنا ما عِنْدَكَ!»

جَلَسَ سايْلَس بِجِوارِ النّارِ ورَوى حِكايَتَهُ. أَشْفَقَتِ الْجَماعَةُ على ذٰلِكَ الرَّجُلِ الْغَريبِ الْأَطْوارِ الضَّعيفِ الْبَصَرِ. ووَجَدَ سايْلَس من ناحِيَتِهِ شَيْئًا مِنَ الْعَزاءِ فيما أَبْدَوْهُ من تَعاطُفٍ. ثمّ تَذَكَّرَ فَجْأَةً أنّه تَعَرَّضَ هو نَفْسُهُ في ما مَضى لِتُهْمَةٍ ظالِمَةٍ. فقامَ عن كُرْسِيِّهِ وسارَ ناحِيَةَ جِم رُدْني، وقالَ له:

«أَخْطَأْتُ في حَقِّكَ. أنا لا أَتَّهِمُكَ، يا جِم. خَطَرْتَ لي لِأنّكَ أَكْثَرُ من سِواكَ تَرَدُّدًا على كوخي. كنتُ أُحاوِلُ فقط أنْ أُخَمِّنَ أيْنَ أَجِدُ مالي.»

شَرَعَ الْقَرَوِيّونَ عِنْدَئِذٍ يَتَداوَلونَ في الاِحْتِمالاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، وتَطَوَّعَ اثْنانِ منهما لِيَعودا مَعَ سايْلَس في ذٰلِكَ الْجَوِّ الْمُمْطِرِ، ويُساعِداهُ في الْبَحْثِ عن ذَهَبِهِ.

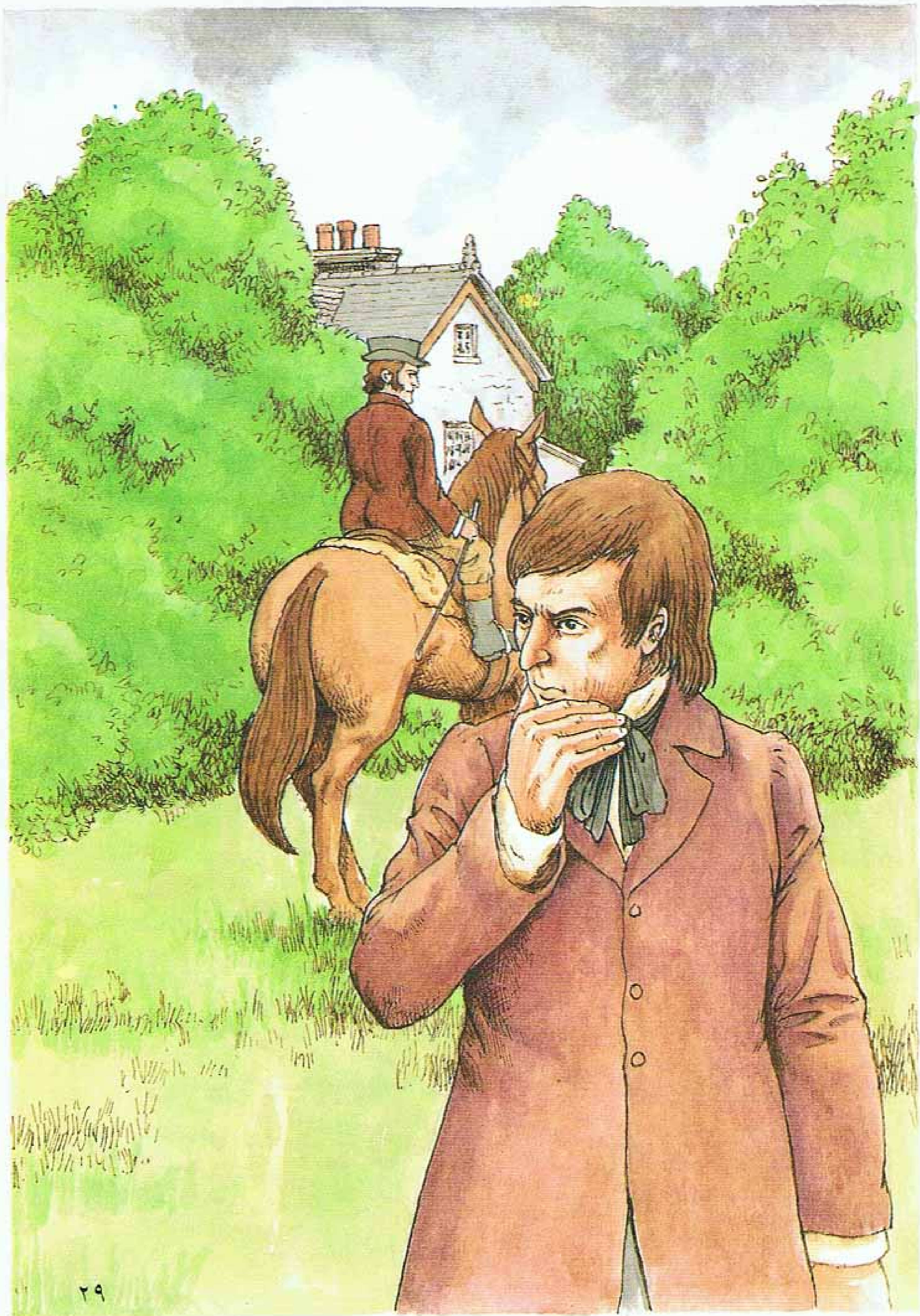
فِي صباحِ الْيَوْمِ التّالي كانتِ الْقَرْيَةُ كُلُّها تَضِجُّ بِخَبَرِ السَّرِقَةِ. وقد شارَكَ غودْفري، شقيقُ دانسْتَن، في تِلْكَ الْأَحاديثِ، بَلْ إنّه ذَهَبَ إلى جِوارِ الْكوخِ يَسْتَطْلِعُ الْأَمْرَ. وقَدْ وَجَدَ بعضُ الْقَرَوِيّينَ في مَوْضِعٍ قَريبٍ قَدّاحَةً قَديمةً، فدَخَلَ في رَوْعِهِمْ أَنَّ بائِعًا مُتَجَوِّلًا كانَ قَدْ مَرَّ مِنْ هُناكَ ذَلِكَ الصَّباحَ، ورَأَوْهُ يُشْعِلُ غَلْيونَهُ بِمِثْلِ تِلْكَ الْقَدّاحَةِ، هُوَ السّارِقُ.

كانَ غودْفري قَلِقًا. فَأَخوهُ دانسْتَن لم يَكُنْ قد عادَ إلى مَنْزِلِهِ من رِحْلَتِهِ الّتي قامَ بها لِيَبيعَ الْجَوادَ. وقد داخَلَتِ الرِّيْبَةُ نَفْسَ غودْفري، وبَدا له أنَّ أَخاهُ لن يَعودَ إلى الْمَنْزِلِ إلّا بَعْدَ أنْ يُقامِرَ بِثَمَنِ الْجَوادِ أو يُبَدِّدَهُ بِطَيْشِهِ الْمَعْهودِ، فانْطَلَقَ يَبْحَثُ عنه.

لَكِن لم يَكَدْ يَشْرَعُ في بَحْثِهِ حتّى رَأى تاجِرًا يَعْرِفُهُ من تُجّارِ الْخَيْلِ، يُقْبِلُ نَحْوَهُ. رَبَطَ التّاجِرُ حِصانَهُ، وأَخْبَرَ غودْفري أنّهُ عَثَرَ على جَوادِهِ قتيلًا، وأنَّ دانسْتَن لم يُصَبْ، في الْغالِبِ، بِأَذًى، وإلّا لَكانَ عُثِرَ عليه في ذَلِكَ الْجِوارِ.

اِسْتَأْذَنَ غودْفري في الِانْصِرافِ، مُقْتَنِعًا أنَّ أخاهُ لا بُدَّ عائِدٌ إلى الْبَيْتِ قَريبًا. وباتَ يَخْشى أنْ يَكْشِفَ دانسْتَن لِأَبيهِ أَمْرَ زَواجِهِ من مولي، فَيَجِدَ أَبوهُ شَيْئًا آخَرَ يُغْضِبُهُ غَيْرَ ضَياعِ إيجارِ الْمُزارِعينَ.

رَأى غودْفري لِذَلِكَ أنَّ خَيْرَ ما يَفْعَلُ هو أنْ يَتَحَمَّلَ نَتائِجَ تَصَرُّفِهِ فيُخْبِرَ أَباهُ الْحَقيقَةَ. وعَزَمَ على أنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ في صَباحِ الْيَوْمِ التّالي. وداعَبَهُ أَمَلٌ في أنْ يَغْفِرَ أَبوهُ له فِعْلَتَهُ، وأنْ يَمْنَعَهُ كِبْرِياؤُهُ من وَصْمِ ابْنِهِ عَلَنًا.



ضَعُفَتْ عَزيمَةُ غودْفري في أَثْناءِ اللَّيْلِ، لٰكِنّه عادَ في الصَّباحِ فاسْتَجْمَعَ شَجاعَتَهُ وحَدَّثَ أباهُ على مائِدَةِ الإفْطارِ. قالَ:

«حَلَّ بِحِصاني مَكْروهٌ، يا أَبي. حَدَثَ ذٰلِكَ أَوَّلَ أَمْسِ.»

قالَ الأَبُ: «أَحْسَبُ أنه وَقَعَ وكَسَرَ رُكْبَتَيْهِ. إنْ صَحَّ ذٰلِكَ، فلن أُعْطِيَكَ حِصانًا غَيْرَهُ. لا مالَ عندي. اَلْمُزارِعونَ لم يَدْفَعوا الْإيجارَ حتّى الْآنَ. اَلْيَوْمَ سأُقاضيهِمْ.»

«اَلْأَمْرُ أَسْوَأُ من ذٰلِكَ، يا أَبي. لقد ماتَ الْحِصانُ. كنتُ أَنْوي أن أبيعَ الْحِصانَ وأُعيدَ إليك مالَكَ. وقد أَخَذَ دانسْتَن الْحِصانَ وأَنْجزَ اتِّفاقَ الْبَيْعِ، ولٰكِنْ قَبْلَ أنْ يُسَلِّمَهُ إلى صاحِبِهِ راحَ يَقْفِزُ به قَفَزاتٍ مُتَهَوِّرَةً فَوَقَعَ الحِصانُ على خَشَبَةِ سِياجٍ وهَلَكَ. لو لم يَحْدُثْ ذٰلِكَ لَكُنْتُ دَفَعْتُ لك هٰذا الصَّباحَ مالَكَ. فالْحَقيقَةُ أنّ الْمُزارِعينَ دَفَعوا الْإيجارَ، لٰكنّ دانسْتَن طَلَبَ منّي أنْ أُعْطِيَهُ إيّاهُ، وأَلَحَّ في الطَّلَبِ، ففَعَلْتُ.»

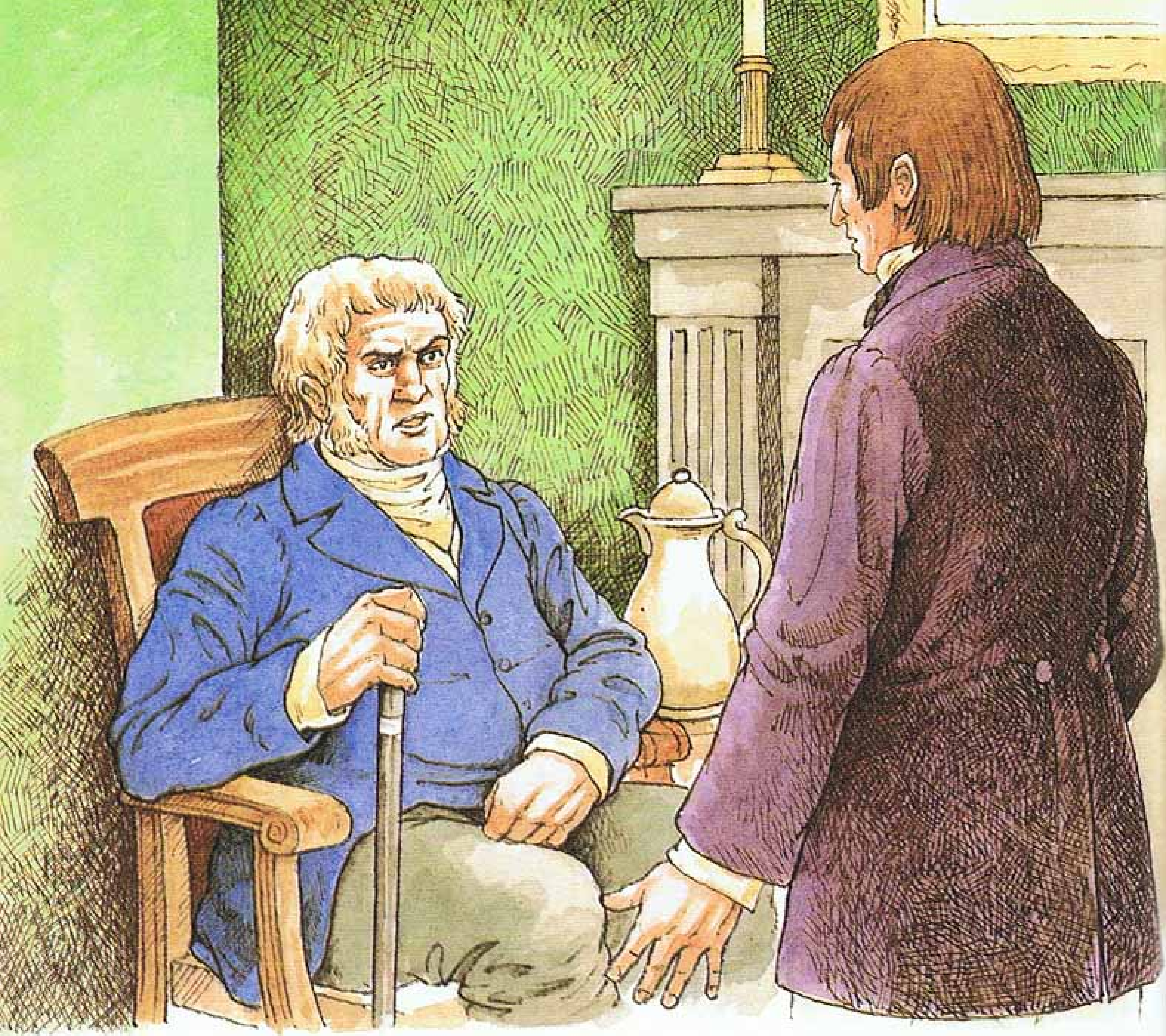
اِحْتَقَنَ وَجْهُ النَّبيلِ كاس غَضَبًا، وبَدا له أنّ ابْنَهُ لم يَرْوِ له الْحَقيقَةَ كُلَّها. قالَ بِصوْتٍ غاضِبٍ: «اِسْتَدْعِ دانسْتَن في الْحالِ!»

أَجابَ غودْفري: «لم يَعُدْ إلى الْمَنْزِلِ بَعْدُ، يا أَبي.»

قالَ النّبيلُ غاضِبًا: «لِمَ أَعْطَيْتَهُ مالي؟»

تَرَدَّدَ غودْفري في الْجَوابِ، لٰكنّه لم يَجِدِ الشَّجاعَةَ على الْبَوْحِ بِالْحَقيقَةِ، فقالَ: «أَرَدْتُ أنْ يَلْهُوَ كما يَلْهو الشَّبابُ.»

عَبَسَ النَّبيلُ عَبْسَةً غاضِبَةً، وقالَ: «آنَ لك أنْ تُساعِدَني في إدارَةِ أَمْلاكي. وآن لك أنْ تتزَوَّجَ. أَحْسَبُ أنّك تَميلُ إلى نانْسي. إذا لم تَكُنْ تَجْرُؤُ على أنْ تَعْرِضَ عليها الزَّواجَ، فإنّي أُكَلِّمُ أَباها نِيابَةً عنك.»

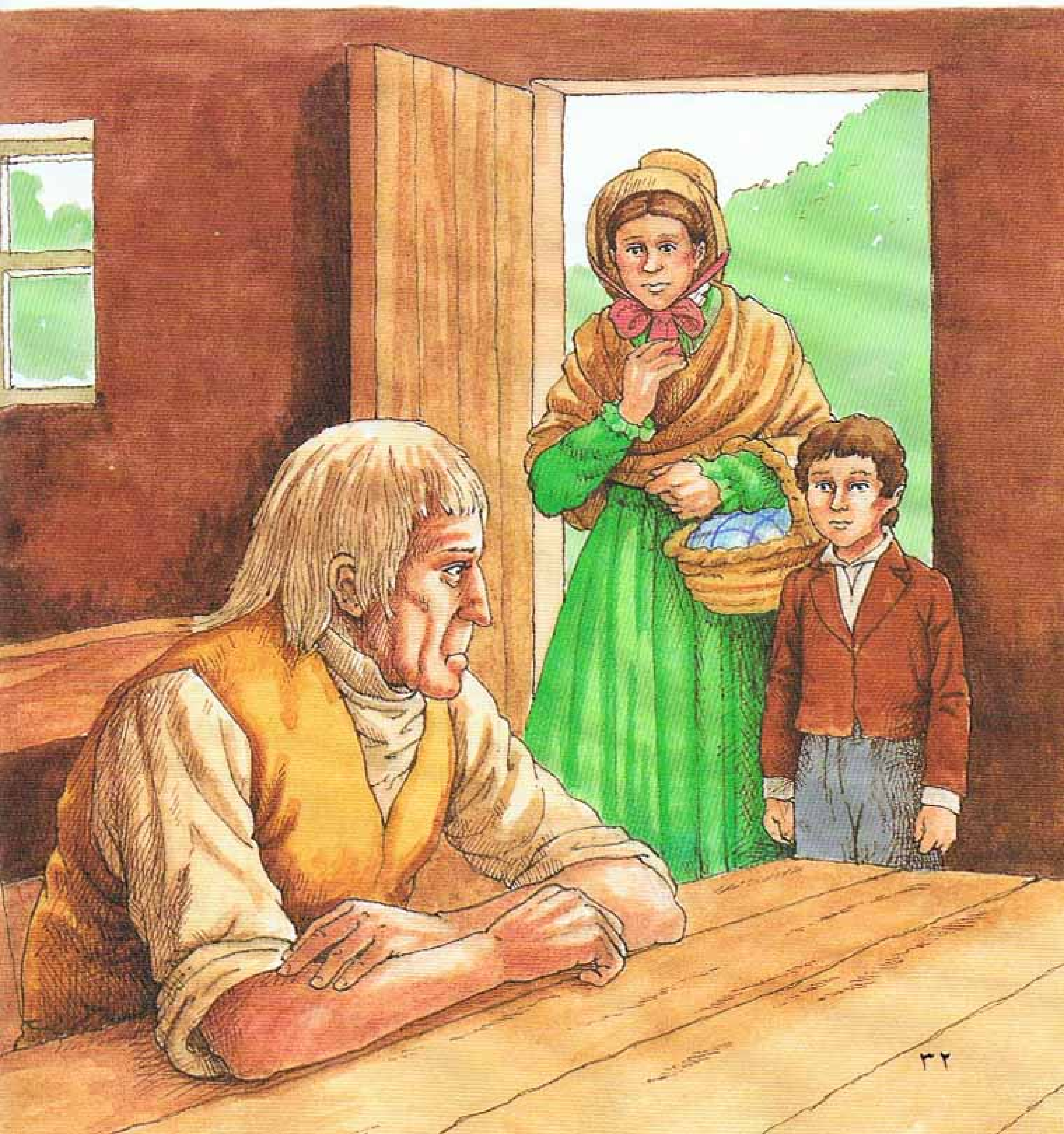


قالَ غودْفري في ذُعْرٍ: «أَرْجوكَ، تَرَيَّثْ بَعْضَ الْحينِ. أنا أوْثِرُ أنْ أُكَلِّمَها بِنَفْسي، فأَرْجو أَلّا تَسْتَعْجِلَ الْأمورَ.»

قالَ النَّبيلُ: «أَفْعَلُ ما يَحْلو لي. خُذْ جَوادَ دانسْتَن وبِعْهُ، وأَعْطِني ثَمَنَهُ. على دانسْتَن بَعْدَ الْيَوْمِ أنْ يَتَحَمَّلَ مَسْؤولِيَّةَ عَمَلِهِ.»

غادَرَ غودْفري الْغُرْفَةَ. كان يَأْمُلُ أنْ يَجودَ عليه الْقَدَرُ يَوْمًا بِالْخَلاصِ.

أَخذَتِ الضَّجَّةُ الّتي أَثارَتْها عَمَلِيَّةُ السَّطْوِ على ذَهَبِ سايْلَس تَتلاشى تَدْريجًا. ولم يَلْحَظْ أَحَدٌ أَنّ دانْستن قد اخْتَفى في الْيَوْمِ نَفْسِهِ الّذي اخْتَفى فيه الذَّهَبُ. إِسْتَمَرَّ سايْلَس يَحيكُ النَّسيجَ، لٰكنّه كان طَوالَ الْوَقْتِ حَزينًا على ما فَقَدَ. كان يَجْلِسُ في الأُمْسياتِ أَمامَ نارِهِ الْخافِتَةِ، فيَضَعُ مِرْفَقَيْهِ على رُكْبَتَيْهِ ورَأْسهُ بيْنَ يَدَيْهِ، ويَئِنُّ أَنينًا خافِتًا.



أَخَذَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ يَعْطِفونَ عليه، بَلْ صارَ بَعْضُهُمْ يَتَرَدَّدُ على كوخِهِ. ثمّ جاءَتْ مَواسِمُ الْأَعْيادِ. وفي الْأَعْيادِ تَأْتَلِفُ الْقلوبُ.

في ذٰلِكَ الْحينِ جاءَتْ إِحْدى الْقَرَوِيّاتِ، واسْمُها دولي، تَزورُ سايْلَس. كانَتْ تَحْمِلُ له سَلَّةً مَمْلوءَةً بِالْكَعْكِ وَالْبَسْكَويتِ. قالَتْ له:

«هٰذا كَعْكُ الْعيد. نُريدُكَ أن تَأْكُلَ منه لِأَنّنا نُريدُكَ أَنْ تَشْعُرَ بأنّك واحِدٌ منّا.»

هَزَّ سايْلَس رَأْسَهُ مُوافِقًا، لٰكِنّه في الْحَقيقَةِ كان كَعادَتِهِ مُسْتَغْرِقًا في حُزْنِهِ. قالَتْ دولي عِنْدَئِذٍ:

«لم يَفُتِ الْأَوانُ بَعْدُ لِتَبْدَأَ حَياةً جَديدَةً.»

ثمّ الْتَفَتَتْ إلى ابْنِها الصَّغيرِ الّذي كان يُرافِقُها، وقالَتْ له:

«غَنِّ لِلسَّيِّدِ مارْنَر أُغْنِيَةَ الْعيدِ!»

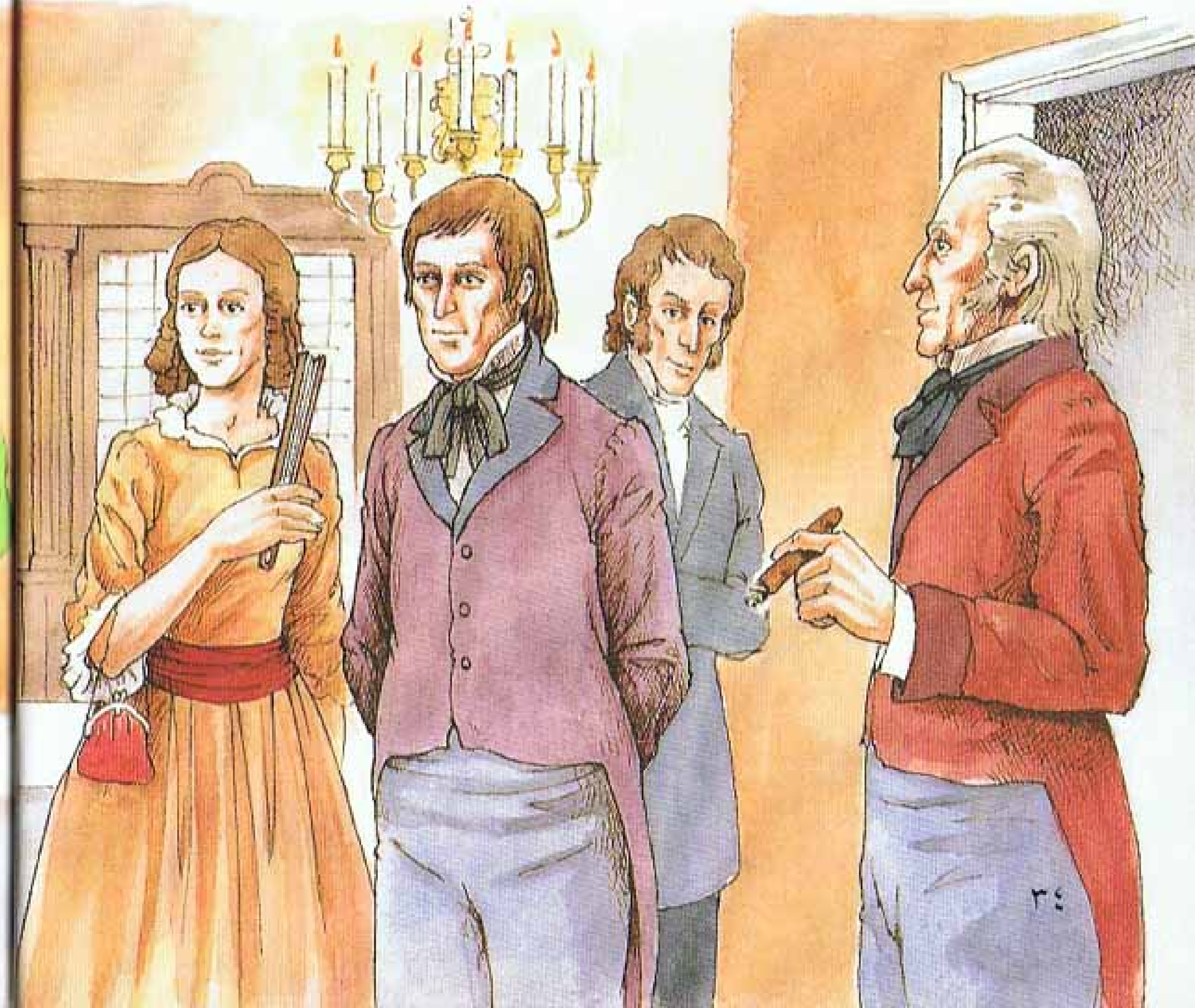
كانَ الْوَلَدُ خَجولًا، لٰكنّه فَعَلَ ما طَلَبَتْهُ أُمُّه منه. وعندما انْتَهى من إِنْشادِهِ ابْتَسَمَ سايْلَس ابْتِسامَةً باهِتَةً، وقالَ وهو شارِدُ الذِّهْنِ:

«غِناءٌ جَميلٌ!»

كانتِ الْقَرْيَةُ كُلُّها تَحْتَفِلُ بالْعيدِ، أمّا سايْلَس فلم تُقَلِّلْ تِلْكَ الْقَرَوِيَّةُ الطَّيِّبَةُ الْقَلْبِ من حُزْنِهِ، وأَمْضى الْعيدَ وَحْدَهُ.

كانَ من عادَةِ النَّبيلِ كاس أنْ يُقيمَ في قَصْرِهِ كُلَّ عامٍ حَفْلًا كَبيرًا. وكان غودْفري هٰذا العامَ يَتَشَوَّقُ لِذٰلِكَ الْيَوْمِ، لأنَّهُ كان يَعْلَمُ أنَّ نانسي ستكونُ مَدْعُوَّةً. لٰكِنّه كان يَتَخَوَّفُ في الْوَقْتِ نَفْسِهِ مِمّا يُمْكِنُ أنْ تَفْعَلَهُ زَوْجَتُهُ مولي، فإنّها كانت قد عادَتْ إلى تَهْديدِهِ، فإمّا أنْ يُعْطِيَها مالًا أو تَفْضَحَ أمْرَ زَواجِها منه.

اِقْتَرَبَ غودْفري، في أثْناءِ الْحَفْلِ، من نانْسي، وراحَ يُحادِثُها. لٰكنّه داسَ عَفْوًا على طَرَفِ ثَوْبِها الطَّويلِ الْفَضْفاضِ فَتَمَزَّقَ. فأَسْرَعَ يُرافِقُها إلى غُرْفَةٍ مُجاوِرَةٍ انْتِظارًا لِمَنْ يَأْتي ويُصْلِحُ الثَّوْبَ. وكان غودْفري قد رَأى في ذٰلِكَ فُرْصَةً يَخْلو بها إلى نانْسي ويُحادِثُها على انْفِرادٍ. قالَ لها:

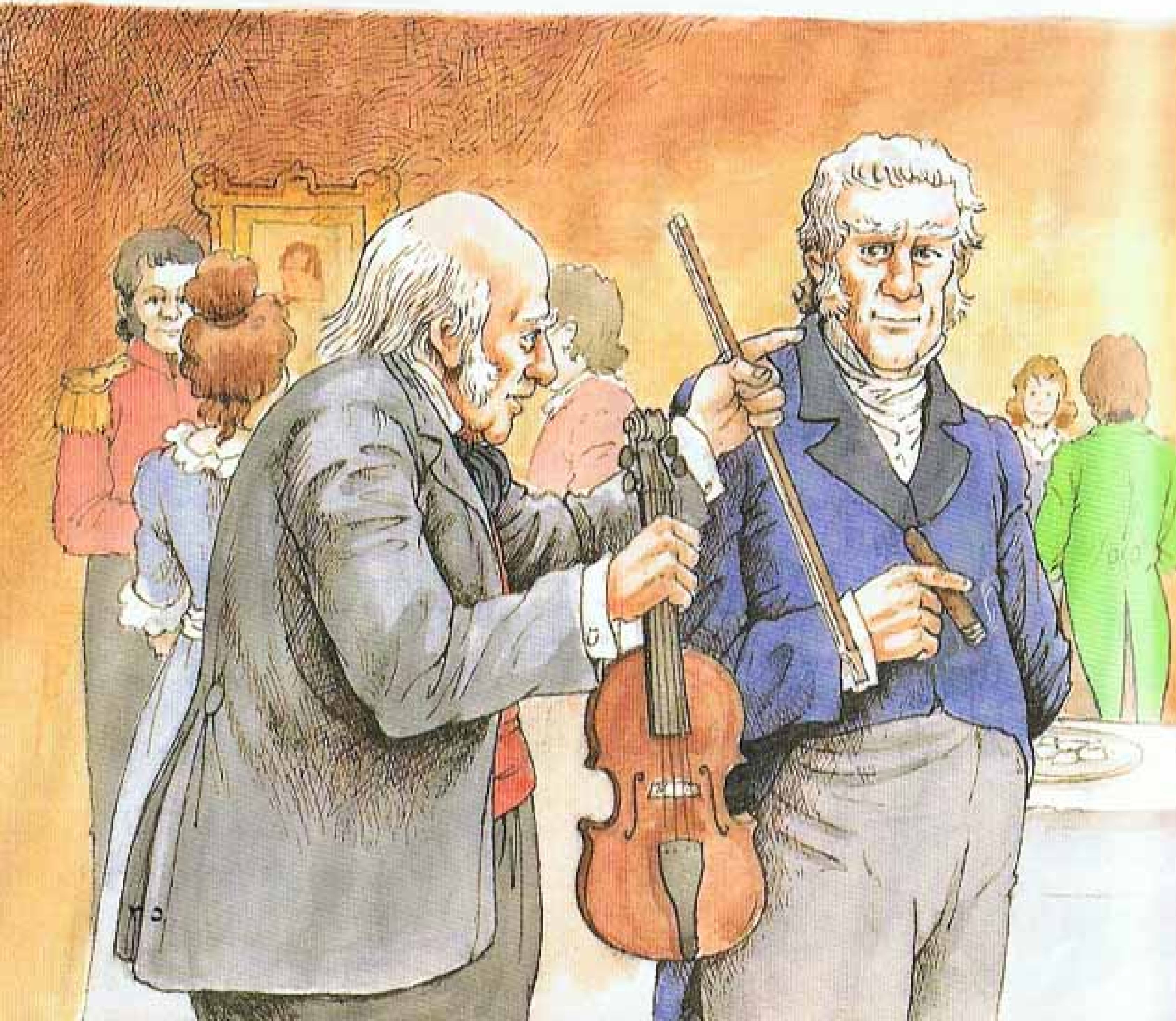




«يُسْعِدُني الْحَديثُ معك أَكْثَرَ مِمّا يُسْعِدُني أيُّ شَيْءٍ آخَرُ في الدُّنْيا.» لٰكنّ نانْسي جَفَتْهُ وصَدَّتْهُ. فقد كان تَناهى إلى مَسْمَعِها أَقاويلُ عن تَصَرُّفاتٍ طائِشَةٍ. وكانت تَخْشى أنْ تكونَ تِلْكَ الْأَقاويلُ صَحيحَةً.

قالَ غودْفري بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «إذا بَدا منّي شَيْءٌ مِنَ الطَّيْشِ، فلِمَ لا تُحاوِلينَ إصْلاحي؟»

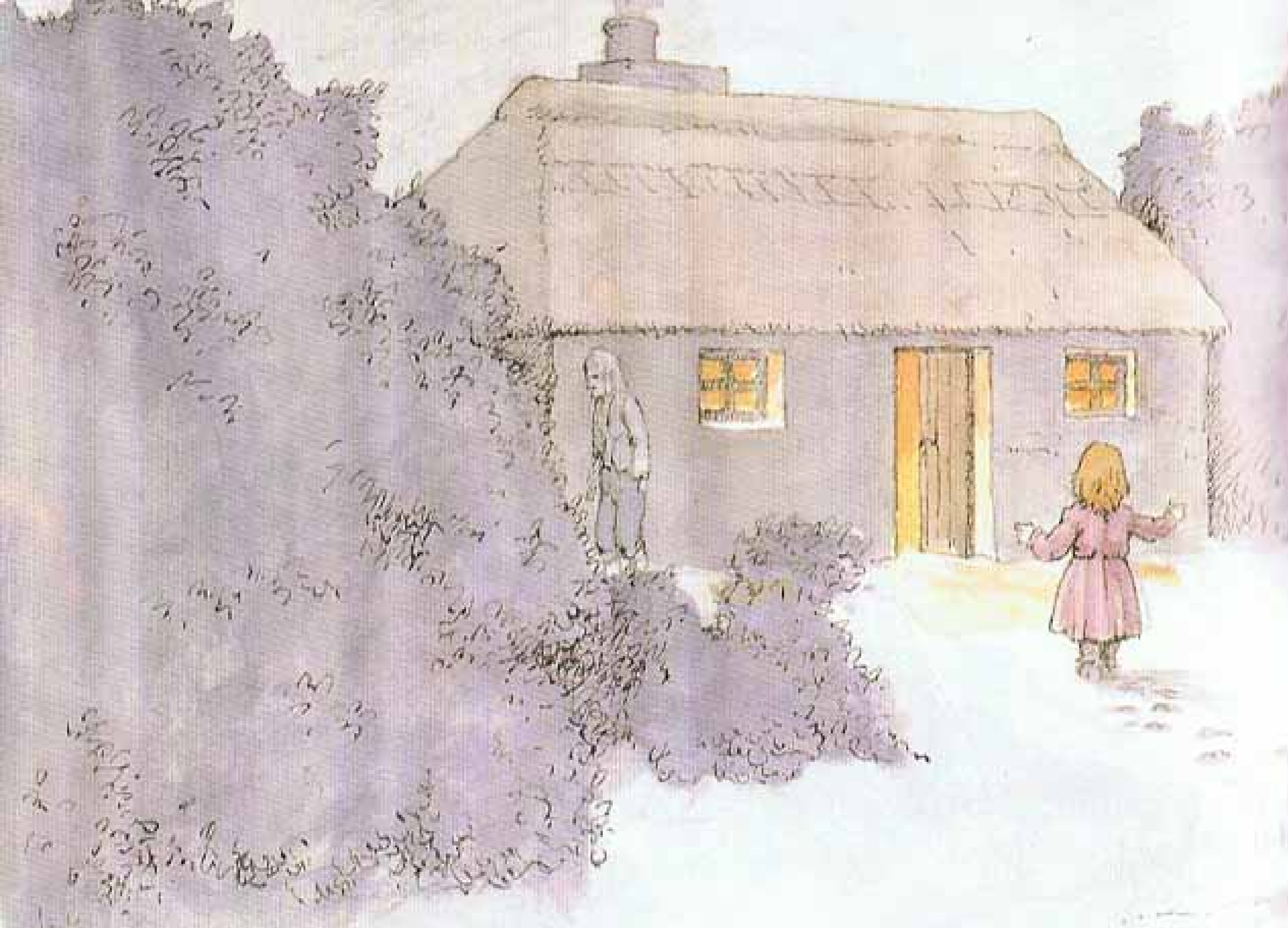
لم تَظْهَرْ نانْسي راضِيَةً عن غودفْري لٰكنّها لم تَسْتَطِعْ أنْ تُخْفي سُرورَها بِصُحْبَتِهِ. وكان غودْفري سَعيدًا بِقُرْبِهِ منها حتّى ولو لم يَجِدْ منها تَشْجيعًا. كان قد عَزَمَ، تِلْكَ اللَّيْلَةَ على الْأَقَلِّ، أنْ يُمَتِّعَ نَفْسَهُ ويَنْسى مَخاوِفَهُ كُلَّها.





في ذٰلِكَ الْوَقْتِ عَيْنِهِ، كانَتْ مولي، زَوْجَتُهُ، تَجوسُ الْمَسالِكَ الْمُغَطّاةَ بِالثَّلْجِ في طَريقِها إلى قَصْرِ النَّبيلِ كاس، تَحْمِلُ بَيْنَ ذِراعَيْها ابْنَتَها الصَّغيرَةَ. كانت قد عَزَمَتْ على أنْ تَكْشِفَ سِرَّها لِلنَّبيلِ، انْتِقامًا من ابْنِهِ غودْفري الّذي رَفَضَ أنْ يَعْتَرِفَ عَلَنًا بِزَواجِها منه. كانت مولي فيما مَضى فَتاةً حَسْناءَ، وكانت تَعْلَمُ أنَّ شَقاءَها وَمَذَلَّتَها وفَقْرَها في إدْمانِها. لٰكنّها، مَعَ ذٰلِكَ، كانت حاقِدَةً على غودْفري أَشَدَّ الْحِقْدِ. ولم تَعُدْ تَعْرِفُ راحَةً إلّا في ما تَتَناوَلُهُ من شَرابٍ فَتّاكٍ. وفي تِلْكَ الطَّريقِ الْبارِدَةِ الْمُوحِشَةِ لم تَكُنْ تَقْدِرُ على مُقاوَمَةِ ذٰلِكَ الشَّرابِ، فَأَخْرَجَتْ قِنّينَةً صَغيرَةً وشَرِبَتْ ما فيها.





مَشَتْ مِشْيَةً مُتَباطِئَةً، وقد أَحَسَّتْ بِنُعاسٍ شَديدٍ. ثمّ لم تَعُدْ تَقْدِرُ على مُقاوَمَةِ ذٰلِكَ النُّعاسِ، فارْتَمَتْ فَوْقَ الثَّلْجِ على جانِبِ الطَّريقِ. وهُناكَ، في جِوارِ جَنْبَةٍ شائِكَةٍ، نامَتْ وهي تَحْتَضِنُ ابْنَتَها.

تَراخى ذِراعا مولي، فَتَرَكَتِ الطِّفْلَةُ أُمَّها وَجَلَسَتْ على الثَّلْجِ إلى جِوارِها. لَفَتَ انْتِباهَها شُعاعٌ كان يَلْمَعُ فَوْقَ الثَّلْجِ. حاوَلَتْ أنْ تُمْسِكَ ذٰلِكَ الشُّعاعَ، لٰكنّه تَسَرَّبَ من بَيْنِ أَصابِعِها. فَمَشَتْ صَوْبَ مَصْدَرِهِ.

كان ذٰلِكَ الْمَصْدَرُ هو النّارَ الْمُتَأَجِّجَةَ في كوخِ سايْلَس مارْنَر. كان الْبابُ مَفْتوحًا. فدَخَلَتِ الطِّفْلَةُ وقَعَدَتْ بِفَرَحٍ على الْكيسِ الْعَتيقِ الّذي كان سايْلَس قد فَرَشَهُ أَمامَ النّارِ لِيَجِفَّ.

كان سايْلَس قد خَرَجَ من كوخِهِ إلى الْهواءِ الطَّلْقِ لِيُوَدِّعَ عامًا ويَسْتَقْبِلَ عامًا. قيلَ له إنّ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَنَلْ ما يَتَمَنّى. وكان هو بِطَبيعَةِ الْحالِ يَتَمَنّى أنْ يَعودَ ذَهَبُهُ إليه. وحَدَثَ عِنْدَما كان في الْخارِجِ أنْ أَصابَتْهُ إحْدى نَوْباتِهِ، فَجَمَدَ في مَكانِهِ وتَصَلَّبَتْ قَسماتُهُ وغابَ عَنِ الْوَعْيِ. في هٰذِهِ الأَثْناءِ مَرَّتِ الطِّفْلَةُ من أمامِهِ ودَخَلَتْ من بابِهِ الْمَفْتوحِ.

عِنْدَما اسْتَفاقَ سايْلَس من غَيْبوبَتِهِ، دَخَلَ مَنْزِلَهُ وجَلَسَ على كُرْسِيِّهِ إلى جانِبِ النّارِ وهو لا يَزالُ زائِغَ الْبَصَرِ. ثمّ لَمَحَ لَوْنَ الذَّهَبِ يَتَأَلَّقُ في ضَوْءِ النّارِ الّتي كانتِ الآنَ قد خَفَتَتْ. أَخَذَ قَلْبُهُ يَخْفِقُ خَفَقانًا شَديدًا، إذ تَخَيَّلَ أنّ كَنْزَهُ قد عادَ إليه.

مَدَّ يَدَيْهِ يَتَحَسَّسُ ما رَأى، لٰكنّ أَنامِلَهُ لم تَلْمُسْ قِطَعًا ذَهَبِيَّةً بل لَمَسَتْ خُصَلًا حَريرِيَّةً. رَكَعَ يَتَفَحَّصُ ذٰلِكَ الشَّيْءَ الْمُدْهِشَ الْعَجيبَ، فإذا هو طِفْلَةٌ نائِمَةٌ. بَدا له هُنَيْهَةً أنّ تِلْكَ الطِّفْلَةَ هي أُخْتُهُ الصَّغيرَةُ الّتي ماتَتْ حينَ كانَ لا يَزالُ صَبِيًّا، وقد أعادَها اللهُ إليه. أَحَسَّ فَجْأَةً بِدِفْءِ الْمَحَبَّةِ الإِنْسانِيَّةِ الّتي كان قد فَقَدَها مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ.

اِسْتَيْقَظَتِ الطِّفْلَةُ، وأَخَذَتْ تَبْكي. حَمَلَها سايْلَس ووَضَعَها على رُكْبَتَيْهِ، فَأَسْرَعَتْ تُحيطُ عُنُقَهُ بِذِراعَيْها. أَدْرَكَ عِنْدَئِذٍ أنّ الطِّفْلَةَ جائِعَةٌ ومَقْرورَةٌ، فَأَسْرَعَ يُؤَجِّجُ النّارَ، ونَزَعَ حِذاءَها الْمُبْتَلَّ وأَعَدَّ صَحْنًا مِنَ الْمُهَلَّبِيَّةِ. أَكَلَتِ الطِّفْلَةُ طَعامًا شَهِيًّا وأَحَسَّتْ بِالدِّفْءِ فبَدَتْ عليها السَّعادَةُ، وأَخَذَتْ تَلْعَبُ.



رَفَعَ سايْلَس الطِّفْلَةَ وَحَمَلَها إلى الْبابِ، وراحَ يُدَقِّقُ النَّظَرَ مُحاوِلًا أنْ يَتَتَبَّعَ آثارَ أَقْدامِها في الثَّلْجِ، وهي آثارٌ كانت قد أَوْشَكَتْ على الِاخْتِفاءِ. تَتَبَّعَ ما تَبَقّى من تِلْكَ الْآثارِ بِمَشَقَّةٍ، إلى أنْ رَأى الطِّفْلَةَ تَمُدُّ ذِراعَيْها ناحِيَةَ جَسَدٍ بَشَرِيٍّ يَكادُ الثَّلْجُ يُغَطِّيهِ، وتَقولُ: «ماما!»

كان الحَفْلُ في مَنْزِلِ النَّبيلِ كاس في ذِرْوَتِهِ. اِتَّفَقَ أَنْ نَظَرَ غودْفري ناحِيَةَ الْبابِ فَأَذْهَلَهُ أَنْ يَرى الْحائِكَ سايْلَس مارْنَر يَقِفُ هُناكَ يَحْمِلُ ابْنَتَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ.

خَيَّمَ الصَّمْتُ على النّاسِ كُلِّهِمْ في الْقاعَةِ، وقد رَأَوْا هم أَيْضًا ما رَآهُ غودْفري. نَهَضَ النَّبيلُ كاس وَتَقَدَّم من سايْلَس غاضِبًا، وقالَ له:

«ما حِكايَتُكَ، تَجيئُنا على هٰذه الْحالِ؟»

أَجابَ سايْلَس: «جِئْتُ أَطْلُبُ الطَّبيبَ. عَثَرْتُ بَيْنَ الصُّخورِ الْمُجاوِرَةِ لِمَنْزِلي على امْرَأَةٍ أَحْسَبُها مَيِّتَةً.»

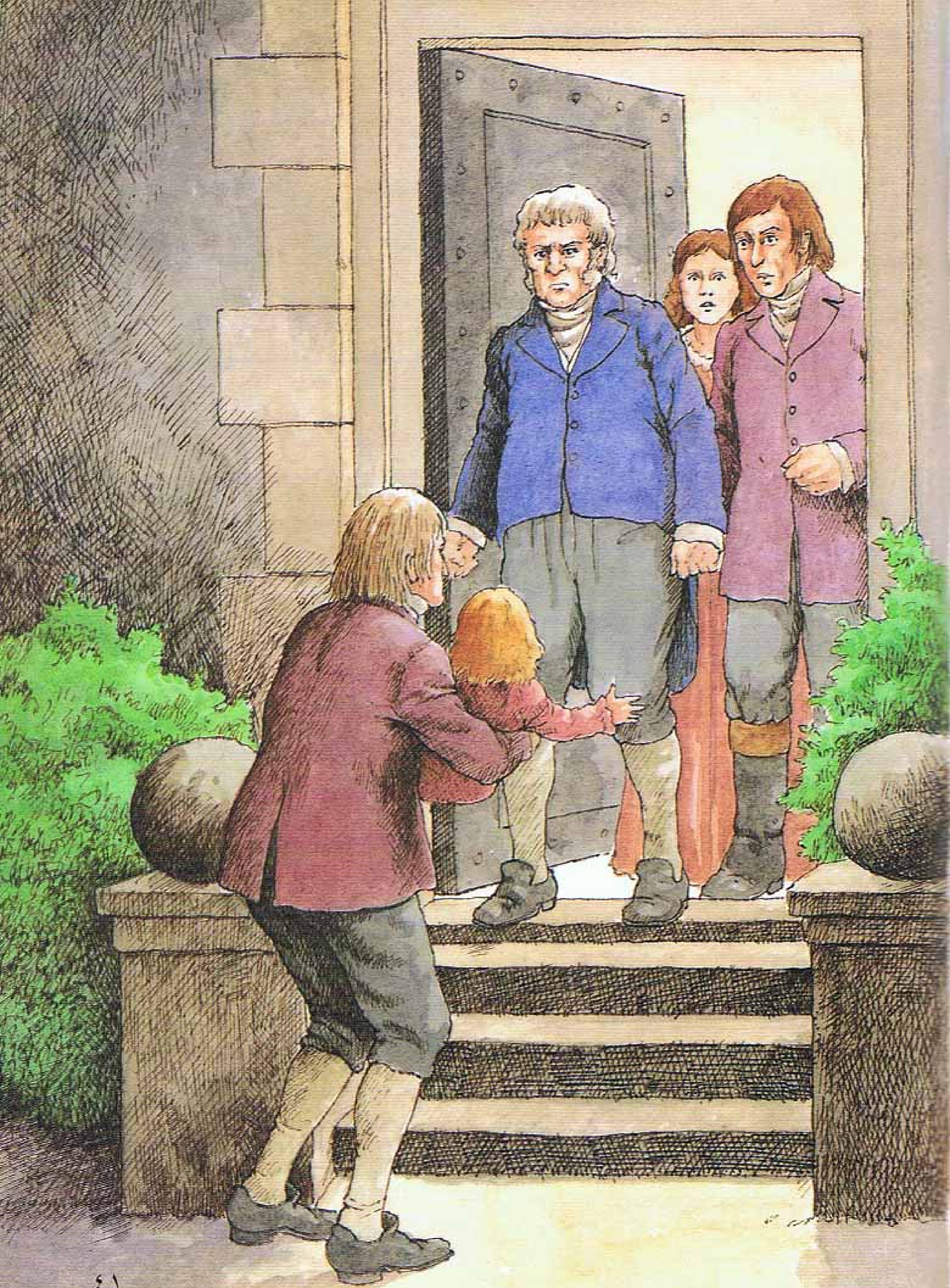
أَسْرَعَ أَحَدُ الضُّيوفِ يَسْتَدْعي الطَّبيبَ. أَرادَ الطَّبيبُ أَنْ تَكونَ معه سَيِّدَةٌ، واقْتَرَحَ اسْمَ السَّيِّدَةِ دولي. وكان أَنْ تَطَوَّعَ غودْفري أَنْ يَذْهَبَ إلى مَنْزِلِ دولي ويُرافِقَها إلى كوخِ الْحائِكِ. فإنّه كان قدِ اسْتَنْتَجَ أَنَّ السَّيِّدَةَ الْمَيِّتَةَ هي زَوْجَتُهُ مولي، لٰكنّه أَرادَ أَنْ يَسْتَوْثِقَ من ذٰلِكَ بِنَفْسِهِ.

وإِذْ كان سايْلَس والطَّبيبُ يَهُمّانِ بِالْخُروجِ، اقْتَرَبَتْ سَيِّدَةٌ من سايْلَس وقالَتْ له:

«يَحْسُنُ أَنْ تَتْرُكَ الطِّفْلَةَ هنا، يا سَيِّدُ مارْنَر.»

أَسْرَعَ سايْلَس يَرُدُّ بِعَصَبِيَّةٍ:

«لا، لا. لن أَتْرُكَها، لن أُبْعِدَها عَنّي. جاءَتْ إِلَيَّ. يَحِقُّ لي أن أَحْتَفِظَ بها.»



مَضى غودْفري إلى مَنْزِلِ السَّيِّدَةِ الْقَرَوِيَّةِ الطَّيِّبَةِ الْقَلْبِ دولي، ورافَقَها إلى حَيْثُ يَعيشُ سايْلَس. وعِنْدَما وَصَلا إلى هُناكَ، وَجَدا أنّ سايْلَس والطَّبيبَ داخِلَ الْكوخِ حَيْثُ كانا قد نَقَلا السَّيِّدَةَ الْمَيِّتَةَ. اِنْتَظَرَ غودْفري في الْخارِجِ، وراحَ يَذْرَعُ الْمَكانَ ذَهابًا وإيابًا بِقَلَقٍ شَديدٍ. كان مُشَوَّشَ الْأَفْكارِ. إذا كانت مولي قد ماتَتْ فإنّه الْآنَ يَبْدَأُ حَياةً جَديدَةً ويَتَزَوَّجُ نانْسي. أمّا الطِّفْلَةُ فلن يَصْعُبَ عليه أنْ يَعْهَدَ بها إلى مَنْ يَتَكَفَّلُ بأَمْرِ تَرْبِيَتِها.

خَرَجَ الطَّبيبُ بَعْدَ قليلٍ من الْكوخِ، وقالَ: «ماتَتْ مُنْذُ بَعْضِ الْوَقْتِ.»

سأل غودْفري: «ما شَكْلُها؟»

«شابَّةٌ، هَزيلَةٌ، ذاتُ شَعْرٍ أَسْوَدَ طَويلٍ، تَبْدو في ثِيابِها وَهَيْئَتِها كالْمُتَشَرِّدينَ، لٰكِنَّ في إصْبَعِها خاتَمَ زَواجٍ.»

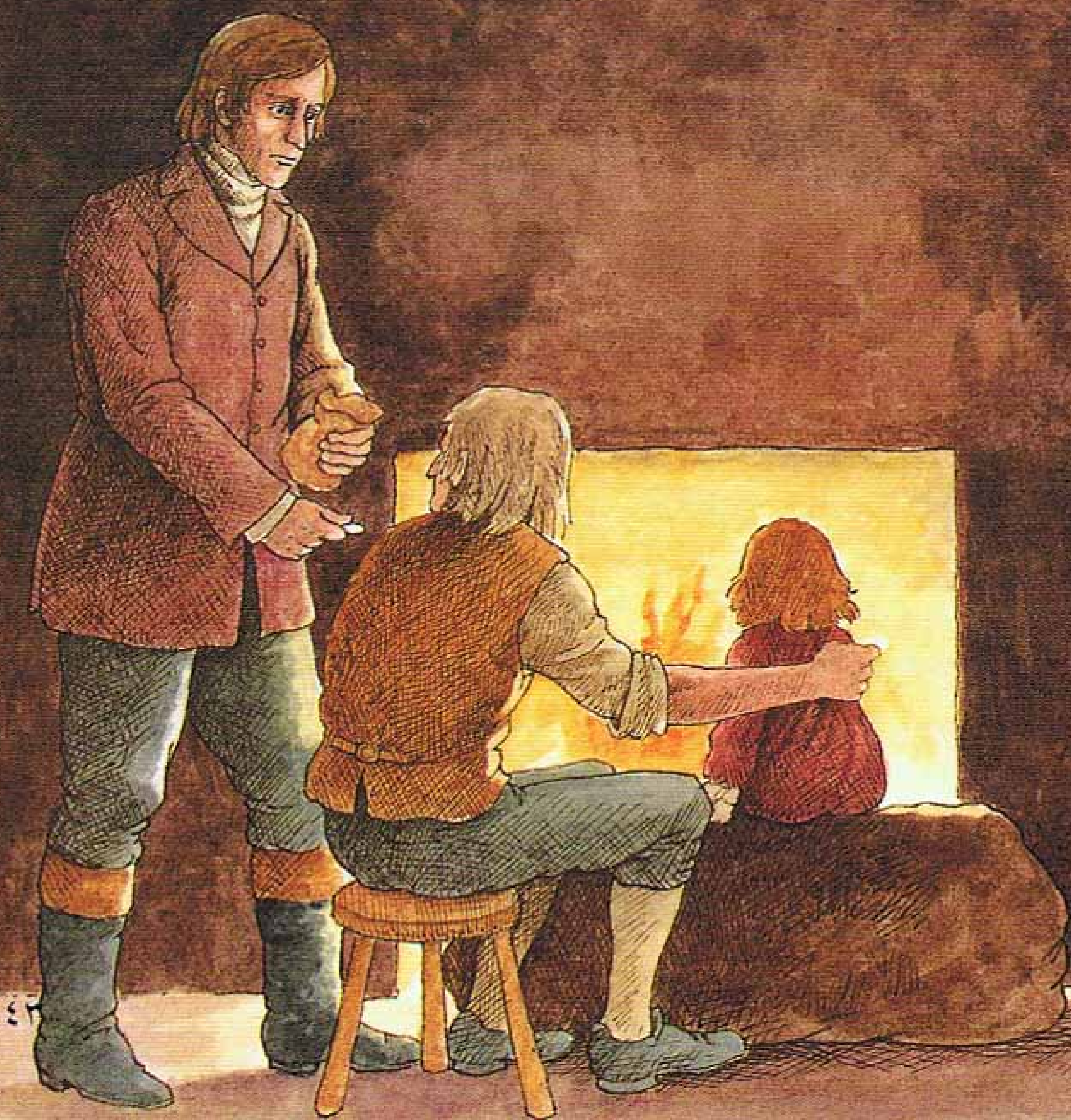
دَخَلَ غودْفري الْكوخَ، وكانَتِ السَّيِّدَةُ دولي هُناكَ. أَلْقى على السَّيِّدَةِ الْمُسَجّاةِ نَظْرَةً واحِدَةً فقط. لٰكنّه بَعْدَ سِتَّةَ عَشَرَ عامًا، عِنْدَما رَوى قِصَّةَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ كامِلَةً، كان لا يَزالُ يَذْكُرُ وَجْهَ زَوْجَتِهِ الْمِسْكينَةِ الْحاقِدَةِ، كأنّما كانَ لا يَزالُ ماثِلًا أَمامَهُ.

اِلْتَفَتَ غودْفري إلى سايْلَس الذي كانَ يَحْمِلُ ابْنَتَهُ وقالَ مُتَظاهِرًا بِاللامُبالاةِ: «أَتَأْخُذُ الطِّفْلَةَ غَدًا إلى مَلْجإِ الْأَيْتامِ؟»

أَجابَ الْحائِكُ بِحِدَّةٍ: «لن أَفْعَلَ ذٰلِكَ إلّا مُجْبَرًا. ليس لِلطِّفْلَةِ أَهْلٌ يَرْعَوْنَها وأنا أيضًا وَحيدٌ. ضاعَ ذَهَبي، وقد جاءَتْ هي إليّ، ومعي ستَبْقى ما لم يَتَقَدَّمْ لِلْمُطالَبَةِ بها مَنْ هو أَحَقُّ منّي بِتَرْبِيَتِها.»

قالَ غودْفري: «طِفْلَةٌ مِسْكينَةٌ! سأُعْطيكَ ما تَشْتَري به لِلطِّفْلَةِ ثِيابًا.»
وَضَعَ بَيْنَ يَدَيْ سايْلَس قِطْعَةً ذَهَبِيَّةً، وعَجَّلَ في الْخُروجِ من الْكوخِ.

أَخيرًا صارَ حُرًّا. سيَطْلُبُ يَدَ نانْسي وما من داعٍ الْآنَ أنْ يَعْتَرِفَ بِماضيهِ. إذا عادَ دانسْتَن، وحاوَلَ أنْ يَخونَ أَخاهُ ويَفْضَحَ أَمْرَهُ فلن يَصْعُبَ عليه أنْ يَرْشُوَهُ، كما كان يَفْعَلُ دائِمًا. سيَعْمَلُ على أنْ يُؤَمِّنَ لِلطِّفْلَةِ الْعِنايَةَ الّتي تَحْتاجُ إليها، لكنّه رَأى أنّ من الْخَيْرِ له ألّا يَكْشِفَ عمّا بَيْنَهُما من صِلَةٍ.





دارَ في الْقَرْيَةِ لَغَطٌ حَوْلَ ذٰلِكَ الْحائِكِ الْوَحيدِ وتَبَنِّيهِ طِفْلَةً. لٰكِنَّ النّاسَ سُرْعانَ ما تَعاطَفوا معه، وقَدَّروا عَمَلَهُ النَّبيلَ. وكان سايْلَس يَطْمَئِنُّ إلى مُساعَدَةِ السَّيِّدَةِ دولي. وقد أَعْطاها قِطْعَةَ غودْفري الذَّهَبِيَّةَ وسَأَلَها أَنْ تَشْتَرِيَ بها لِلطِّفْلَةِ ثِيابًا. قالَتْ دولي:

«يا سَيِّدُ مارْنَر، لا تَحْتاجُ أَنْ تَشْتَرِيَ إِلّا زَوْجًا من الْأَحْذِيَةِ. فأنا أُعْطيكَ الثِّيابَ الّتي كان ابْني آرْن يَلْبَسُها قَبْلَ خَمْسِ سَنَواتٍ.»

في ذٰلِكَ الْيَوْمِ نَفْسِهِ وَصَلَتْ دولي تَحْمِلُ صُرَّةَ الثِّيابِ الّتي وَعَدَتْ بها. وقامَتْ بِغَسْلِ الطِّفْلَةِ وأَلْبَسَتْها ثِيابَها.





قالَ سايْلَس، بِشَيْءٍ من التَّرَدُّدِ: «شُكْرًا لكِ. هٰذا كَرَمٌ منكِ. لٰكِنّي أُريدُ أَنْ أَتَعَلَّمَ كُلَّ ما يَنْبَغي أَنْ أَتَعَلَّمَهُ لِأَقومَ بِتَرْبِيَتِها التَّرْبِيَةَ الْحَسَنَةَ. أُريدُها أَنْ تُحِبَّني وأَنْ تكونَ فَخورَةً بي. ذَهَبَ مالي، وقد عَوَّضَني اللهُ بها عن ذٰلِكَ الْمالِ!» ثمّ رَفَعَ الطِّفْلَةَ ووَضَعَها في حُجْرِهِ.

قالَتْ دولي: «لا شَكَّ أَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ عليكَ أَنْ تُرَبِّيَها كما يُرَبّي سائِرُ النّاسِ أَوْلادَهُمْ، وأَنْ تُنَشِّئَها تَنْشِئَةً صالِحَةً.»

كان سايْلَس يُريدُ لِلطِّفْلَةِ خَيْرَ تَرْبِيَةٍ فهَزَّ رَأْسَهُ مُوافِقًا. وأَسْمى الطِّفْلَةَ إِپي، وكان اسْمَ أُخْتِهِ الّتي ماتَتْ صَغيرَةً.

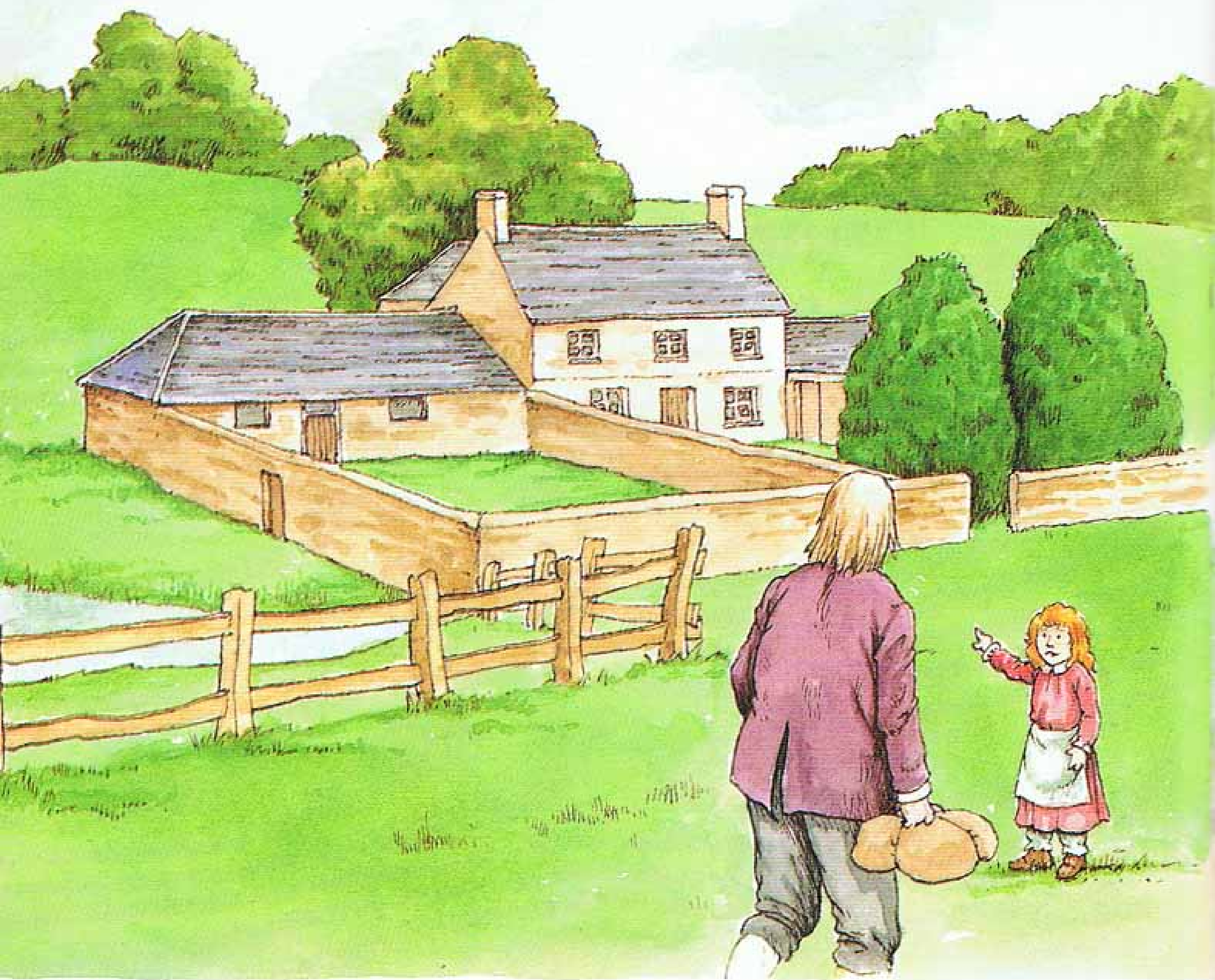
أَعْطَتْ إيبي لِحَياةِ سايْلَس مَعْنًى جَديدًا. كانت تَسْتَكْشِفُ وتَكْبُرُ وتَتَعَلَّمُ، وصارَ الْحائِكُ يَرى الْحَياةَ والطَّبيعَةَ والنّاسَ في ضَوْءٍ جَديدٍ. كان كُلُّ مَنْ يرى إيبي يَتَعَلَّقُ بها. كان فيها يَنْبوعٌ من الْبَهْجَةِ. وصارَ سايْلَس يَأْخُذُها إلى الْقَرْيَةِ، ويُقابِلُ النّاسَ، وعادَ فانْدَمَجَ، شَيْئًا فشَيْئًا في حَياةِ الْمُجْتَمَعِ من حَوْلِهِ. ولم يَعُد يَعْمَلُ على نَوْلِهِ لَيْلًا ونَهارًا، فَكَثيرًا ما كانت إيبي تَأْتيهِ في حاجاتِها الْكَثيرَةِ، وكان هو يُسْعِدُهُ أنْ يَتْرُكَ عَمَلَهُ لِيُلَبِّيَ لها طَلَباتِها. ونَشَأَتْ إيبي دون أنْ تَتَعَرَّضَ مَرَّةً واحِدَةً لِلْقِصاصِ، فلم يَكُنْ سايْلَس يُطيقُ أنْ يُؤَنِّبَها أو يَقْسُوَ عليها.

كان يقولُ: «ستَكْبُرُ وتَتْرُكُ طَيْشَ الأَطْفالِ.»

كان سايْلَس يَأْخُذُها معه في تَنَقُّلاتِهِ بَيْنَ الْمَزارِعِ الْمُجاوِرَةِ. كانَتْ سَلْواهُ الْوَحيدَةَ. وكانَ النّاسُ الّذين يَشْتَغِلُ لهم أو غَيْرُهُمْ من أَهْلِ الْقَرْيَةِ وسُكّانِ الْمناطِقِ الْمُجاوِرَةِ يَعْطِفونَ كَثيرًا على سايْلَس وإيبي، وكَثيرًا ما كانوا يُقَدِّمونَ لهما الْهَدايا.

صارَ النّاسُ يَسْتَقْبِلونَ سايْلَس لَيْسَ على أنّه الْعامِلُ النَّشيطُ الْماهِرُ فَحَسْبُ، بَلْ على أنّه الرَّجُلُ اللَّطيفُ الّذي يَسُرُّهُمْ أنْ يَسْتَقْبِلوهُ في مَنازِلِهِمْ. ولم يَعُدْ هو يَنْظُرُ إلى الْمالِ على أنّه كَنْزٌ يُريدُ أنْ يُخَبِّئَه، بَلْ على أنّه وَسيلَةٌ تُؤَمِّنُ لإيبي ما تَحْتاجُ إليه من مَأْكَلٍ وثِيابٍ وغَيْرِ ذلِكَ من حاجاتٍ.

لقد كانت إيبي تَأْخُذُ بِيَدِهِ إلى حَياةٍ أَسْعَدَ وأَغْنى، حَياةٍ ذاتِ مَعْنًى.



هٰكذا تَوالَتِ السِّنونَ. مَرَّتْ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً. كانت في حَياةِ سايْلَس مارْنَر سَنَواتٍ هانِئَةً. كان غودْفري كاس يَرْعى الْحائِكَ، وقد أَعْطاهُ بَعْضَ الْمَفْروشاتِ الْقَديمَةَ الَّتي كانت في قَصْرِ أبيهِ. وكان غودْفري قد تَزَوَّجَ نانْسي في رَبيعِ ذٰلِكَ الْعامِ الَّذي جَرَتْ فيه تِلْكَ الْأَحْداثُ الْجِسامُ. وبَعْدَ سَنَواتٍ تُوُفِّيَ أَبوهُ فوَرِثَ لَقَبَهُ وأَمْلاكَهُ. وظَلَّ دائِمًا يُقَدِّمُ الْعَوْنَ لسايْلَس ليَقومَ بِتَنْشِئَةِ إيبي تَنْشِئَةً حَسَنَةً. كذٰلِكَ كانت دولي تَتَرَدَّدُ دائِمًا على كوخِ سايْلَس وتَحْرِصُ على أَنْ يَظَلَّ نَظيفًا مُرَتَّبًا.

شَبَّتْ إيبي، فإذا هي صَبِيَّةٌ رائِعَةُ الْجمالِ. كانت آنذاكَ في الثّامِنَةَ عَشْرَةَ من عُمْرِها. وكان آرُن، ابْنُ السَّيِّدَةِ الْقَرَوِيَّةِ دولي، شابًّا وَسيمًا قَويمًا في الرّابِعَةِ والْعِشْرينَ من عُمْرِهِ. وكان يَعْمَلُ بُسْتانِيًّا في قَصْرٍ غَيْرِ بَعيدٍ.

كَثيرًا ما كانَ آرُن يَتَرَدَّدُ على مَنْزِلِ سايْلَس، ويَجْلِسُ، هُوَ وإيبي، أَمامَ الْمَنْزِلِ. قالَ لَها ذاتَ يَوْمٍ:



«أَتَمَنّى أَنْ أَقْضِيَ عُمْري في هٰذا الْمَكانِ!»

أَجابَتْ إِبِي بِصَوْتٍ دافِئٍ: «أَنا أَتَمَنّى ذٰلِكَ أَيْضًا!»

في أَحَدِ الْأَيّامِ، وبَيْنَما كان سايْلَس وإِبِي عائِدَيْنِ من الْقَرْيَةِ، يُرافِقُهُما آرُن. قالَتْ إِبِي إِنّها تَتَمَنّى لو كان عِنْدَها حَديقَةٌ صَغيرَةٌ حَوْلَ الْكوخِ. تَحَمَّسَ سايْلَس، بطَبيعَةِ الْحالِ، لِلْفِكْرَةِ. لٰكِنَّه كان في الْواقِعِ قد صارَ كَهْلًا لا يَقْوى على الْعَمَلِ الشّاقِّ. فَأَسْرَعَ آرُن يَعْرِضُ مُساعَدَتَهُ، ووَعَدَ أَنْ يُزيلَ الصُّخورَ ويَحْفِرَ الْأَرْضَ وأَنْ يَقومَ بِكُلِّ الْأَعْمالِ الّتي تَتَطَلَّبُ قُوَّةً.

تابَعَ الثَّلاثَةُ سَيْرَهُمْ ناحِيَةَ الْبَيْتِ. كان سايْلَس يُفَكِّرُ طَوالَ ذٰلِكَ الْوَقْتِ بِحَياتِهِ، وكَيْفَ انْقَلَبَتْ من عُزْلَةٍ واكْتِئابٍ إِلى سَلْوى وفَرَحٍ. وكَثيرًا ما كان يَتَحَدَّثُ في هٰذا الْأَمْرِ مع دولي، ويَذْكُرُ لها أَنّه كان قد فَقَدَ ثِقَتَهُ بِالْإِنْسانِ مُنْذُ أَنْ خانَهُ صديقُهُ وِلْيَم دان، ومُنْذُ أنِ اتُّهِم بِالسَّرِقَةِ اتِّهامًا باطِلًا، وأَنّ هٰذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ جَعَلاهُ يَتْرُكُ الْمَدينَةَ ويَأْتي إِلى الرّيفِ لِيَعيشَ حَياةً هادِئَةً. وإِذا كان قد وَجَدَ في الرّيفِ شَقاءً فإِنّه قد وَجَدَ أَيْضًا السَّعادَةَ والْأَمَلَ.

بُعَيْدَ الظُّهْرِ جَلَسَ سايْلَس وإِبِي يَتَشَمَّسانِ خارِجَ الْكوخِ. وكان سايْلَس يُدَخِّنُ غَلْيونَهُ. تَحَدَّثَتْ إِبِي عن الْحَديقَةِ الّتي تَحْلُمُ بها. قالَتْ إِنّها تُريدُ أَنْ يَكونَ طَرَفُ الْحَديقَةِ في الْبُقْعَةِ الّتي وَقَعَتْ فيها أُمُّها وماتَتْ. هُناك أَرادَت أَنْ تَزْرَعَ أَزْهارًا رَبيعِيَّةً. وقالَتْ:

«أُريدُ أنْ يَكونَ لِلْحديقَةِ سورٌ أَيْضًا، يا أَبي. آرُن يَجْلُبُ الْحِجارَةَ من الْمِنْطَقَةِ الصَّخْرِيَّةِ حَوْلَنا.» ذَهَبَتْ إلى صَخْرَةٍ تُحاوِلُ رَفْعَها، وفَجْأَةً نادَتْ سايْلَس، وقالَتْ:

«تَعالَ انْظُرْ! مِياهُ الْخَزّانِ انْخَفَضَتْ كَثيرًا مُنْذُ الْبارِحَةِ. كان الْخَزّانُ أَمْسِ مُمْتَلِئًا!»

قالَ سايْلَس: «ذٰلِكَ لأنَّ السَّيِّدَ غودْفري قد حَوَّلَ الْمِياهَ إلى حُقولِهِ، سَيَبْدو هٰذا الْخَزّانُ الْقَديمُ غَريبًا إذا جَفَّ ماؤُهُ.»

عادَ سايْلَس وابْنَتُهُ فَجَلَسا. وبَعْدَ حينٍ سَأَلَتْهُ إِپي: «إذا تَزَوَّجْتُ، هل أَتَزَوَّجُ بِخاتِمِ أُمّي؟»





جَفَلَ سايْلَس، لٰكنّه أَحسَّ أنّ إِپي جادَّةٌ في ما تَقولُ، فَسَأَلَها بِلُطْفٍ: «لِماذا، يا إِپي، أَتُفَكِّرينَ بِالزَّواجِ؟»

أَجابَتْ إِپي: «نَعَمْ. آرُن يُريدُ أنْ يَتَزَوَّجَني. لٰكِنْ لن تَكونَ وَحْدَكَ أَبَدًا، يا أبي. هٰذا ما قالَهُ آرُن. يُريدُنا أَنْ نَعيشَ كُلُّنا مَعًا، فلا تَحْتاجَ إلى أنْ تُرْهِقَ نَفْسَكَ بِالْعَمَلِ. سيَكونُ لك آرُن ابْنًا.»

سَأَلَ سايْلَس: «أَتُريدينَ أنْ تَتَزَوَّجيهِ؟»

أَجابَتْ إِپي: «نَعَمْ، ولٰكِنْ لا أَعْرِفُ مَتى.»

قالَ سايْلَس: «أنتِ صَغيرَةٌ على الزَّواجِ. سنَسْأَلُ السَّيِّدَةَ دولي عن رَأْيِها في هٰذا الْأَمْرِ. إنّي أَثِقُ بِحِكْمَتِها. أنا أُريدُ أنْ أَطْمَئِنَّ عليك. أُريدُ أنْ يَكونَ معك بَعْدَ مَوْتي شَخْصٌ قَوِيٌّ يُحِبُّكِ ويَرْعاكِ. فَلْنَسْأَلِ السَّيِّدَةَ دولي. إنّها تُريدُ الْخَيْرَ لك ولِابْنِها.»



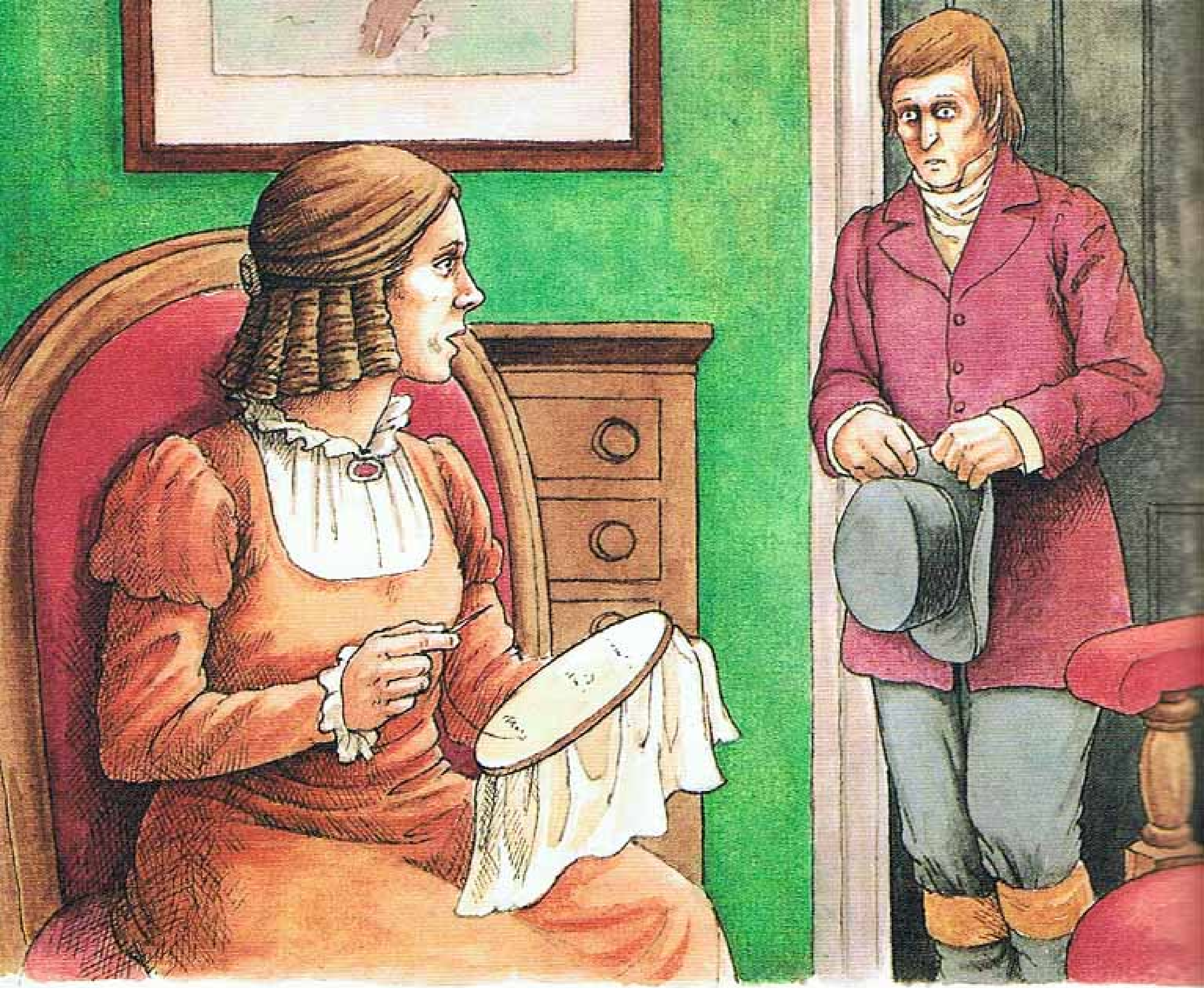
في ذٰلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ كانت نانْسي كاس تَجْلِسُ بَعْدَ الظُّهْرِ وَحْدَها، وقد اسْتَغْرَقَتْ في تَفْكيرٍ عميقٍ. كان زَوْجُها غودْفري قد ذَهَبَ لِيُراقِبَ تَحْويلَ المِياهِ من الْخَزّانِ إلى حُقولِهِ.

كانت نانْسي تَجْلِسُ أَمامَ النّافِذَةِ تُفَكِّرُ في حَياتِها مع غودْفري. فقد كانت ابْنَتُها الْوَحيدَةُ ماتَتْ طِفْلَةً. كانت تُحِسُّ أَنَّ وَقْعَ الْفاجِعَةِ أَشَدُّ على زَوْجِها غودْفري. لَعَلَّهُ كان يَرى أَنَّ عَمَلَهُ الْجادَّ في أَمْلاكِهِ الْواسِعَةِ يَكونُ ذا مَعْنًى لو كان له وريثٌ يَرِثُ هٰذه الْأَمْلاكَ من بَعْدِهِ.

أَرادَ غودْفري أَنْ يَتَبَنّى إِبي عِنْدَما كانت في الثّانِيَةَ عَشْرَةَ من عُمْرِها، لٰكِنَّ زَوْجَتَهُ نانْسي رَفَضَتْ تِلْكَ الْفِكْرَةَ رَفْضًا قاطِعًا. كانت تَرى أَنَّ على الْإِنْسانِ أَنْ يَقْبَلَ بِنَصيبِهِ من الْحَياةِ، وأَنَّ السَّعْيَ إلى تَغْييرِ ما قُدِّرَ لِلْمَرْءِ لن يَجْلِبَ عليه إِلّا التَّعاسَةَ. لقد أُرْسِلَتْ إِبي إلى سايْلَس مارْنَر. ولا يَنْبَغي أَنْ يَتَدَخَّلَ أَحَدٌ فيما هو مُقَدَّرٌ. لم يُطْلِعْ غودْفري زَوْجَتَهُ على زَواجِهِ الْأَوَّلِ. فلم تَفْهَمْ رَغْبَتَهُ الْمُلِحَّةَ في تَبَنّي إِبي.

وبَيْنَمَا هي تَتَأَمَّلُ الْحُقولَ الْمُمْتَدَّةَ أَمامَها، جاءَتْ خادِمَتُها مُسْرِعَةً، وقالَتْ: «أَلم تُلاحِظي النّاسَ الّذين يَمُرّونَ من هنا؟ إِنّهم كُلُّهُمْ يَسيرونَ في اتِّجاهٍ واحِدٍ، وكأَنّما قد وَقَعَ هُناكَ حادِثٌ.»

قالَتْ نانْسي: «أَرْجو أَلّا يَكونَ ثَوْرُ جارِنا قد أَفْلَتَ مَرَّةً أُخْرى.» لٰكِنْ إذ كانت تَنْتَظِرُ غودْفري أَخَذَ الْقَلَقُ يُساوِرُها. وَصَلَ غودْفري بَعْدَ وَقْتٍ قَصيرٍ. فَمَشَتْ نانْسي صَوْبَهُ، وهي تَقولُ: «الْحَمْدُ للهِ أَنَكَ..» لٰكِنّها لم



تُكْمِلْ كَلامَها، فقد رَأَتْ زَوْجَها شاحِبَ الْوَجْهِ يَرْتَعِشُ، ورَأَتْهُ يَرْمي نَفْسَهُ على كُرْسِيٍّ قَريبٍ، فَجَلَسَتْ إلى جانِبِهِ حائِرَةً مُتَسائِلَةً.

قال غودْفري: «جِئْتُ على عَجَلٍ لأَكونَ أَوَّلَ مَنْ يَنْقُلُ إليك النَّبأَ. صَدْمَةٌ فَظيعَةٌ! إنّه دانسْتَن، أَخي الّذي اخْتَفى قَبْلَ سِتَّةَ عَشَرَ عامًا. وَجدْنا هَيْكَلَهُ العَظْمِيَّ. الْخَزّانُ أَفْرَغْنا ماءَهُ. لا بُدَّ أنّه كان في قَعْرِهِ طَوالَ هٰذه السِّنينَ. عَرَفْتُ أنّه هو لِأَنّا وَجدْنا معه سَوْطِيَ ذا الْمُسْكَةِ الذَّهَبِيَّةِ وكذٰلِكَ ساعَتَهُ وخاتِمَهُ. لَيْسَ هٰذا فقط، فلا بُدَّ أنَّهُ هو الّذي سَرَقَ ذَهَبَ الْحائِكِ. فقد وَجدْنا الذَّهَبَ أَيْضًا هُناكَ.»

صَمَتَ غودْفري هُنَيْهَةً، وقد حَدَّقَ في الْأَرْضِ. ولم تَقُلْ نانْسي شَيْئًا، فقد شَعَرَتْ أَنَّ عِنْدَه ما يُريدُ أَنْ يَبوحَ به.

«كُلُّ ما خَفِيَ يَظْهَرُ، يا نانْسي، متى شاءَ اللهُ ذٰلِكَ. أَخْفَيْتُ عنك طَوالَ هٰذه السِّنينَ سِرًّا، ولن أُخْفِيَهُ بَعْدَ الْآنَ. عِنْدَما تَزَوَّجْتُكِ، أَخْفَيْتُ عنك أَمْرًا كان من واجبي أَنْ أُطْلِعَك عليه. تلك الْمَرْأَةُ التي وَجَدَها مارْنَر في الثَّلْجِ مَيِّتَةً – والِدَةُ إِيبي – تِلْكَ الْمَرْأَةُ الْبائِسَةُ الْمِسْكينَةُ كانت زَوْجَتي. إِيبي هي ابْنَتي.»

عِنْدَما تَكَلَّمَتْ نانْسي أَخيرًا لم يَكُنْ في صَوْتِها غَضَبٌ بل كان فيه أَسَفٌ عَميقٌ. قالَتْ:

«يا غودْفري، لو كُنْتَ أَخْبَرْتَني ذٰلِكَ قَبْلَ سِتِّ سَنَواتٍ، لَكُنّا قُمْنا بِجانِبٍ من واجِبِنا تِجاه الطِّفْلَةِ. أَتَظُنُّ أَنِّي كُنْتُ سأَرْفُضُ تَبَنِّيَها لو عَلِمْتُ أَنها ابْنَتُكَ؟ ويا لَيْتَ كُنّا أَخَذْناها مُنْذُ الْبِدايَةِ. لو أَخَذْتَها، كما كان يَجْدُرُ بك أَنْ تَفْعَلَ، لكانت أَحَبَّتْني مَحَبَّتَها لِأُمٍّ، ولَكانت حَياتُنا مَعًا أَشَدَّ سَعادَةً.» ثمّ سَكَتَتْ، وقد غَلَبَها الْبُكاءُ.

قال غودْفري: «هل أَطْمَعُ يَوْمًا بِسَماحِكِ؟»

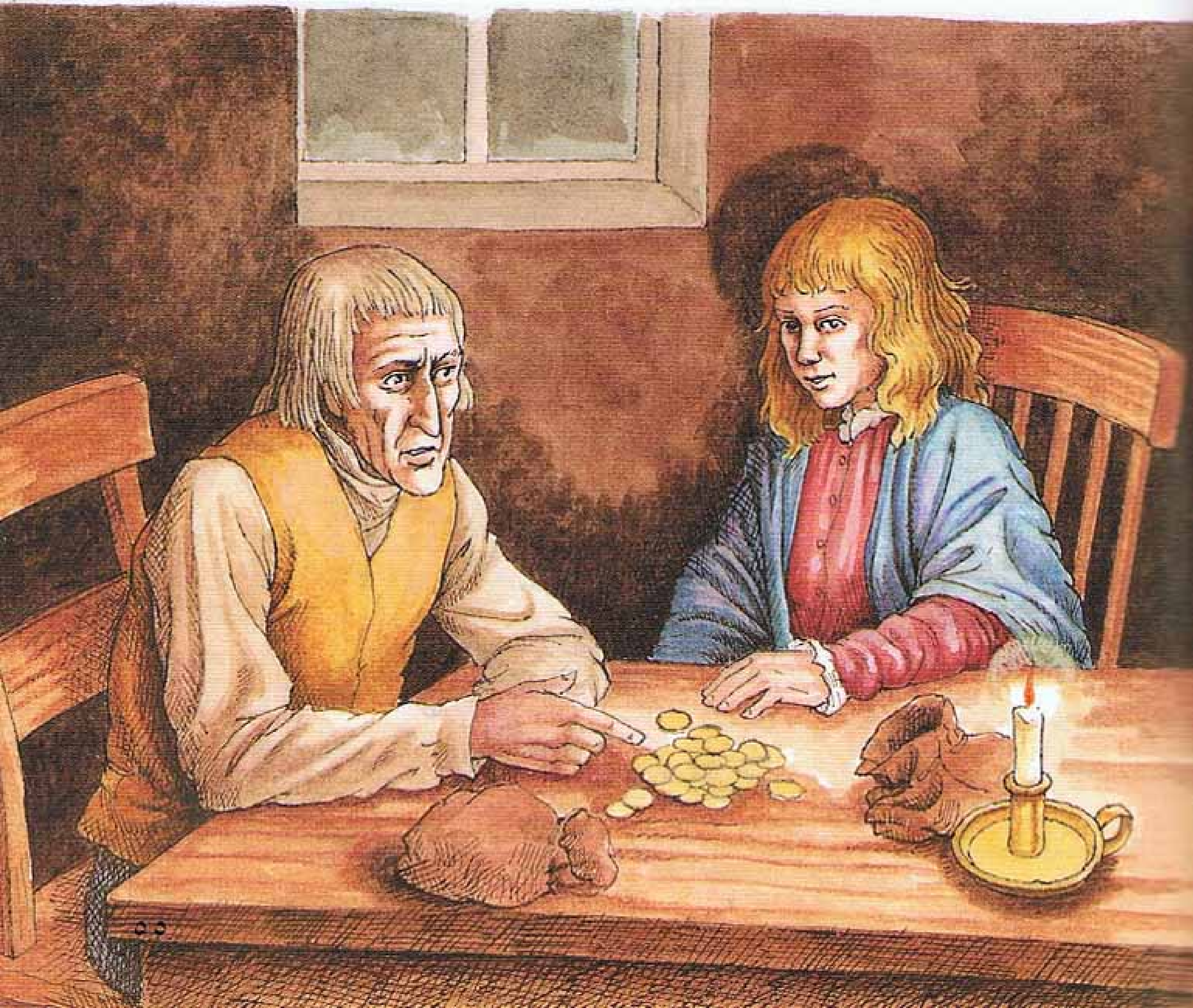
أَجابَتْ: «إِساءَتُكَ إِلَيَّ طَفيفَةٌ. فلقد كُنْتَ رَفيقًا بي طَوالَ السَّنَواتِ السِّتَّ عَشْرَةَ الْماضِيَةَ. لٰكِنّ إِساءَتَكَ الْأُخْرى بالِغَةٌ، وإِنّ من واجِبِكَ الْآنَ أَن تَعْتَرِفَ بِابْنَتِكَ إِيبي وأَنْ تكونَ مَسْؤولًا عن إِعالَتِها. وسأَقومُ أنا بما يَتَوَجَّبُ عليَّ تِجاهَها، وسأُصَلّي إِلى اللهِ كي تُحِبَّني.»

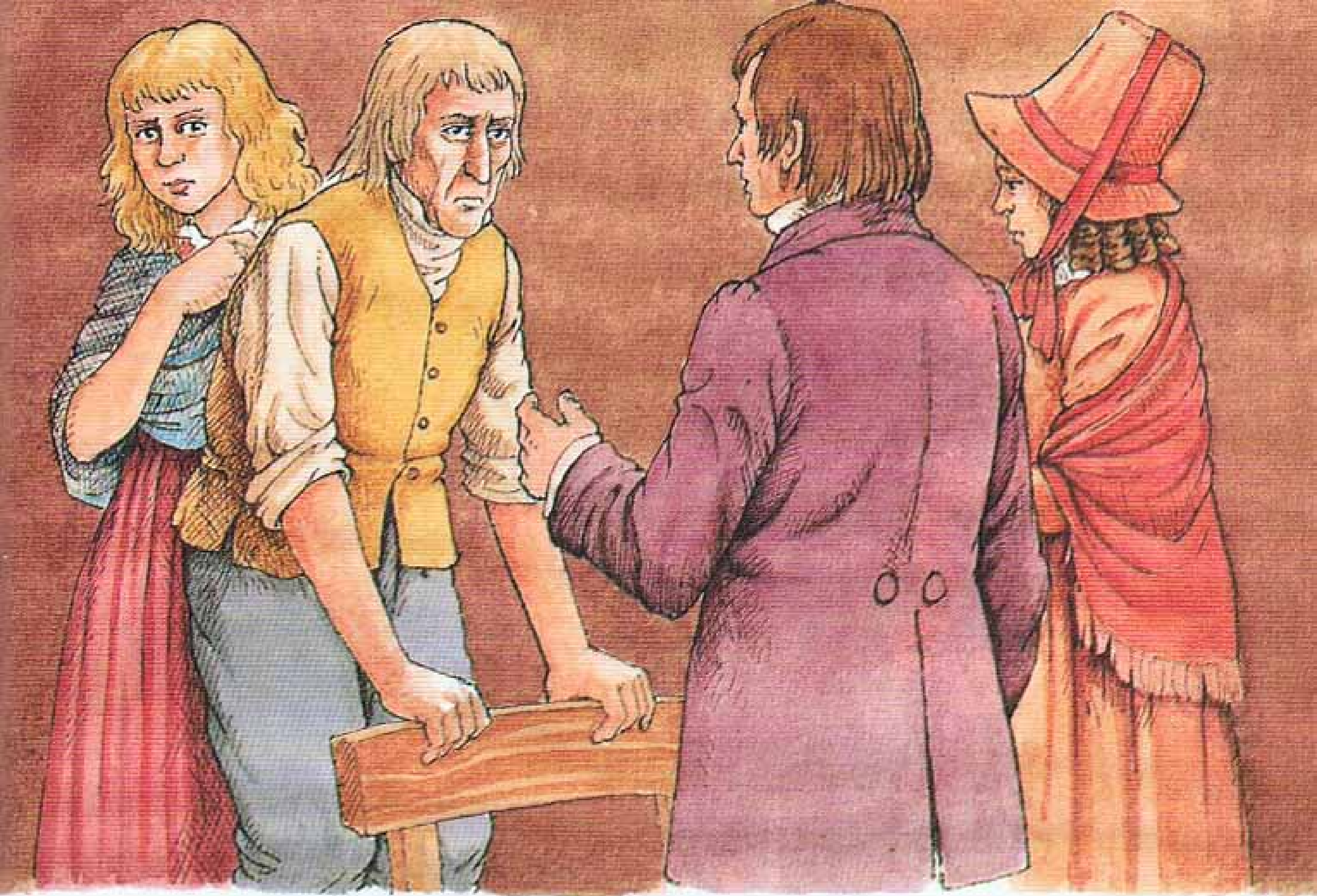
قال غودْفري: «نَذْهَبُ اللَّيْلَةَ إِلى كوخِ مارْنَر، حالَما تَهْدَأُ الْحَرَكَةُ حَوْلَ خَزّانِ الْماءِ.»

في السّاعةِ الثّامِنَةِ من تِلْكَ اللَّيْلَةِ كان سايْلس وإيبي يَجْلِسانِ وَحيدَيْنِ في الْكوخِ. كان الذَّهَبُ بَيْنَهُما على الطّاوِلَةِ، وكانا يَتَحَدَّثانِ عن الْأَحْداثِ الْغَريبَةِ الّتي انْتَهَتْ بِعَوْدَةِ الذَّهَبِ إلى صاحِبِهِ.

قال سايْلَس: «يا طِفْلَتي الْغالِيَةَ، لو لم يُرْسِلْكِ اللهُ إلَيّ لَكُنْتُ مُتُّ يائِسًا بائِسًا. لقد أُخِذَ منّي الْمالُ في ذٰلِكَ الْحينِ، وكما تَرَيْنَ أُعيدَ إلَيّ حينَ صِرْتُ أَحْتاجُهُ لك. ما أَجْمَلَ ذٰلِكَ: الْحياةُ حُلْوَةٌ، واللهُ كَريمٌ!»

في هٰذه اللَّحْظَةِ وَصَلَ السَّيِّدُ غودْفري كاس وزَوْجَتُهُ، فأَسْرَعَتْ إيبي تُرَحِّبُ بهما وفَتَحَتِ الْبابَ على آخِرِهِ.





قال غودْفري: «إنّه لَعَزاءٌ لي، يا سَيِّدُ مارْنَر، أنْ أَرى مالَكَ قد عادَ إليك، إذْ إنّ مَنْ حَرَمَكَ منه كان واحِدًا من أَفْرادِ أُسْرَتي. إنّي مَدينٌ لك أَيْضًا في غَيْرِ ذٰلِكَ.»

«أنا أَيْضًا مَدينٌ لك بِالْكَثيرِ، يا سَيِّدي. أمّا السَّرِقَةُ، فلا أَعْتَبِرُ أنّها كانت خَسارَةً، وأنت، على أَيِّ حالٍ، لا جَريرَةَ لك فيها.»

قالَ غودْفري بَعْدَ تَرَدُّدٍ: «أَحْسَنْتَ رِعايَةَ إيبي في السِّتَّ عَشْرَةَ سَنَةً الْماضِيَةَ، لٰكِنْ أَلا تَرْغَبُ في أنْ تَراها في رِعايَةِ أُسْرَةٍ غَنِيَّةٍ نبيلَةٍ تُعِدُّها لِمُسْتَقْبَلِ حَياتِها أَحْسَنَ إعْدادٍ وتُوَرِّثُها مالًا كَثيرًا؟ ماذا يَنْتَظِرُها، عِنْدَما تَشيخُ أنت، غَيْرُ الْفَقْرِ والشَّقاءِ؟»

أَحَسَّ سايْلَس بضيقٍ شَديدٍ، وقالَ: «ماذا تَعْني، يا سَيِّدي؟»

قالَ غودْفري: «ما أَعْنيهِ هو أَنّنا، أنا وزَوْجَتي، لَيْسَ لنا أَوْلادٌ، وأنّنا لَنَرْغَبُ رَغْبَةً صادِقَةً أنْ تَعيشَ إِپي معنا ابْنَةً لنا. ستُحِبُّكَ إِپي دائِمًا وتَأْتي إلى زِيارَتِك وسنَعْمَلُ كُلَّ ما في وُسْعِنا لِتَعيشَ حَياةً مُريحَةً.»

قال سايْلَس: «إپي، يا ابْنَتي، تَكَلَّمي. لن أَقِفَ في طَريقِك.»

«شُكْرًا لكِ يا سَيِّدَتي. شُكْرًا لكَ يا سَيِّدي. لٰكِنّي لا أَسْتَطيعُ أنْ أَتْرُكَ أَبي. وأنا لا أُريدُ أنْ أَكونَ سَيِّدَةً غَنِيَّةً نَبيلَةً. شُكْرًا لكما على أَيِّ حالٍ.»

كانَ غودْفري قد أَحَسَّ بِالضّيقِ يَزْحَفُ على صَدْرِهِ. فالأُمورُ لا تَجْرِي على ما كان يَشْتَهي. قالَ: «لٰكِنّ لي حقًّا مَشْروعًا، يا إِپي مارْنَر. إنّ من واجِبي، يا مارْنَر، أنْ أُطالِبَ بإِپي ابْنَةً لي وأنْ أَرْعاها. إنّها ابْنَتي أنا. أُمُّها كانت زَوْجَتي.»

كان لِذٰلِكَ النَّبَإِ وَقْعٌ شَديدٌ. فقد أَخَذَتْ إِپي تَرْتَعِشُ. أمّا مارْنَر فقد قالَ بِمَرارةٍ: «إذًا، لِمَ لم تُطالِبْ بها، يا سَيِّدي، قَبْلَ سِتَّةَ عَشَرَ عامًا، قَبْلَ أنْ أَتعَلَّقَ بها. إذا أَنْكَرَ امْرُؤٌ نِعْمَةً تَأْتي إلى بابِهِ فإنّها تُصْبِحُ من حَقِّ أولٰئِكَ الّذين يَتَعَهَّدونَها. لقد دَعَتْني دائِمًا أَباها، فهل تَرى الآنَ أنْ تَفْصِلَها عنّي؟ لٰكنّي لن أَزيدَ على ما قُلْتُ. أَتْرُكُ لإِپي أنْ تُقَرِّرَ. وأنا سأَلْتَزِمُ بِقَرارِها.» فقالَتْ نانْسي بصَوْتِها الرَّقيقِ: «يا عَزيزَتي، ستَكونينَ كَنْزِيَ. لا نَطْمَحُ إلّا أنْ تَكونَ ابْنَتُنا مَعَنا.»

أَسْرَعَتْ إِپي، وهي على شَفا الدُّموعِ، تَقولُ: «لا أَقْدِرُ أنْ أَشْعُرَ أنّ لي أَبًا غَيْرَ الأَبِ الّذي عَرَفْتُهُ طَوالَ عُمْري. ولقد وَعَدْتُ أنْ أَتَزَوَّجَ شابًّا عامِلًا سيَعيشُ معنا ويُعينُني على أنْ أَرْعى أبي في شَيْخوخَتِهِ.»

فِي ضَوْءِ النُّجومِ مَشى غودْفري ونانْسي صَوْبَ الْبَيْتِ بِصَمْتٍ. وعِنْدَما دَخَلا مَنْزِلَهُما الْفَسيحَ رَمى غودْفري نَفْسَه على كُرْسِيِّهِ، فاقْتَرَبَتْ منه نانْسي، وأَمْسَكَتْ يَدَهُ، وقالَتْ له:

«هٰذا هو آخِرُ الْمَطافِ.»

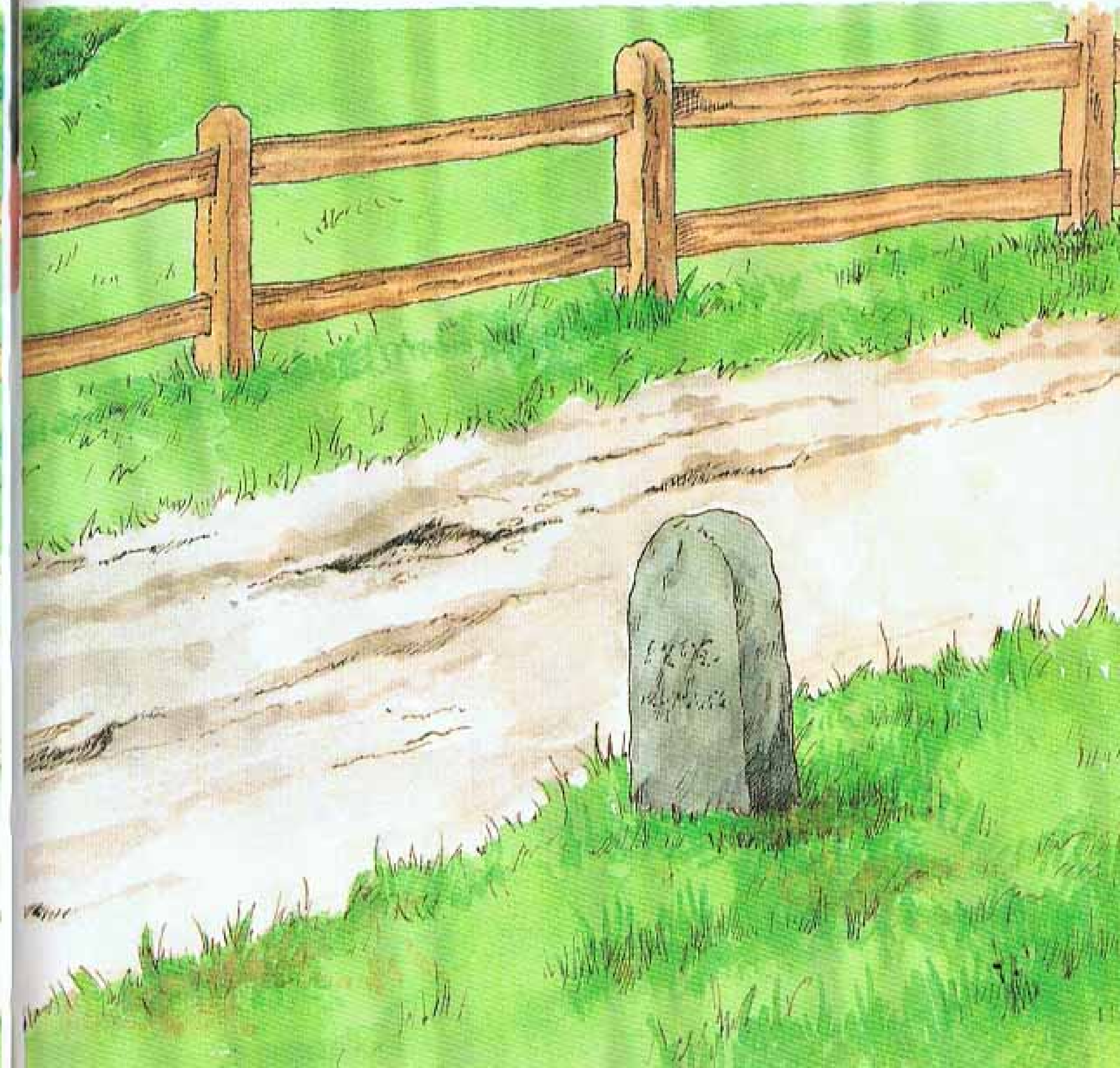
أَجابَ غودْفري: «نَعَمْ. أَظُنُّ أَنَّ علينا أَنْ نَقْطَعَ الْأَمَلَ من أَنْ نَأْخُذَها ابْنَةً لنا.» ثمّ قالَ بِصَوْتٍ خَفيضٍ: «إِنَّ من الدُّيونِ ما لا تُسَدِّدُهُ، كما يُسَدَّدُ دَيْنُ الْمالِ، بأَنْ تَدْفَعَ زِيادَةً تُعَوِّضُ عَنِ السِّنينَ الّتي انْقَضَتْ. إنّ مارْنَر مُحِقٌّ فيما قالَهُ عن النِّعْمَةِ الّتي يَصُدُّها الْمَرْءُ عن بابِهِ. أَرَدْتُ يَوْمًا أَنْ أَتَظاهَرَ أَنّي بلا وَلَدٍ. والْيَوْمَ أنا بلا وَلَدٍ على غَيْرِ إرادَتي. علمًا أنّ عليّ أَنْ أَسْعى، كُلَّ ما في وُسْعي، لإسْعادِها على النَّحْوِ الّذي تُريدُهُ. أَلَيْسَتْ مَخْطوبَةً إلى آرُن وِنْثْرُب. رَأَيْتُهُما مَعًا مَرّاتٍ.»

قالَتْ نانْسي: «نَعَمْ، إنّه شابٌّ خَلوقٌ ونَشيطٌ.»

قال غودْفري: «إنّها جميلَةٌ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ؟ لٰكنّها لا تُحِبُّني. تَظُنُّ أَنّي أَسَأْتُ إلى أُمِّها وأَسَأْتُ إليها. إنّها تَراني أَسْوَأَ مِمّا أنا حَقًّا. لن تَعْرِفَ حَقيقَةَ ما شَعَرْتُ به وما أَشْعُرُ. وفي هذا قِصاصٌ لي. لم أَكُنْ لِأَقَعَ بِكُلِّ هٰذه الْمَكارِهِ لو كُنْتُ صادِقًا معك. لم يَكُنْ زَواجي الْخَفِيُّ لِيَجُرَّ عليّ غَيْرَ الشَّرِّ، وأَوْغَلْتُ في الشَّرِّ حينَ تَخَلَّيْتُ عن واجِبي الْأَبَوِيِّ.»

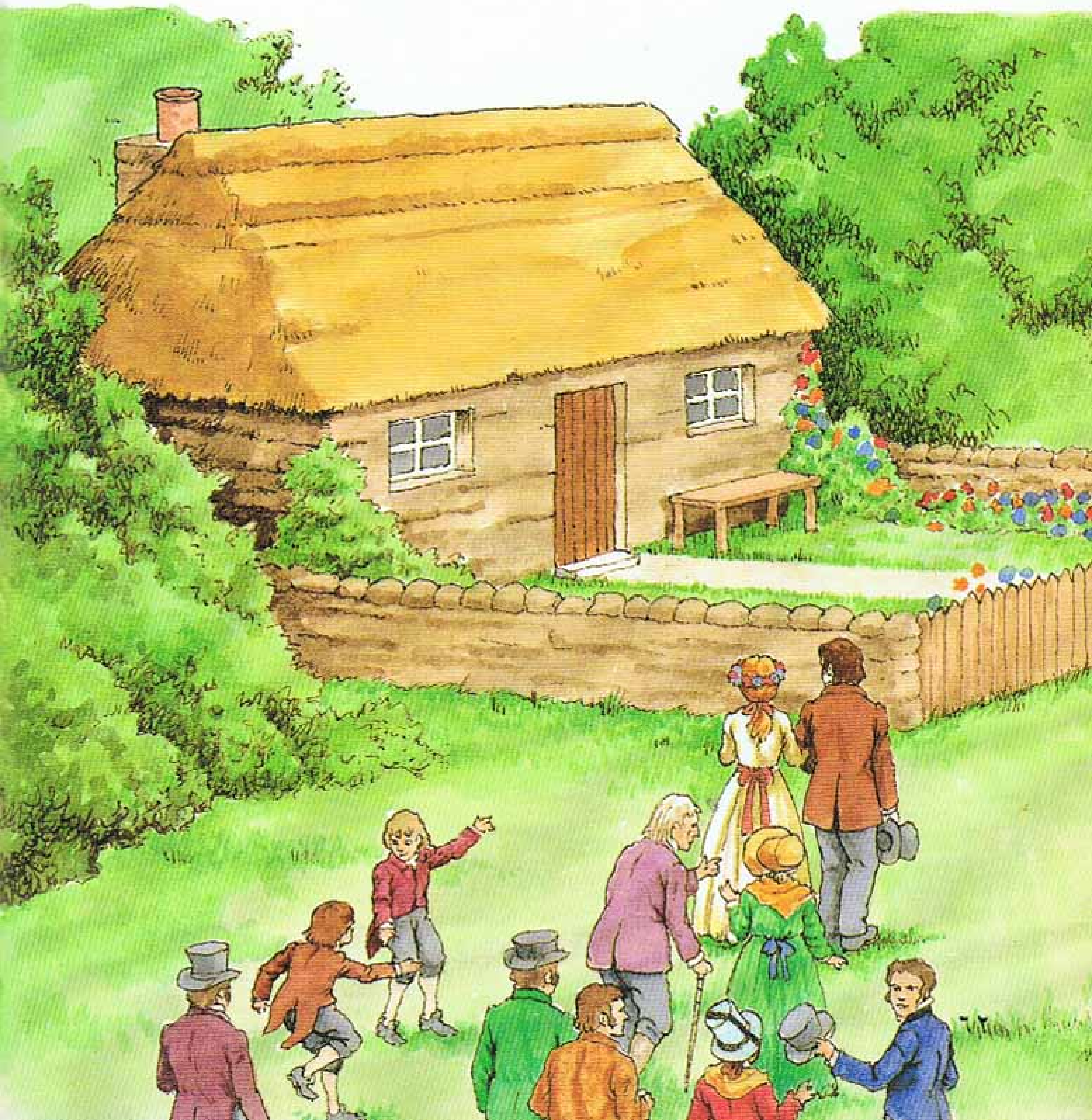
ظَلَّتْ نانْسي ساكِتَةً، فقد كانت تَعْلَمُ أَنَّهُ مُحِقٌّ فيما يَقولُ. ثمّ تابَعَ غودْفري كَلامَهُ، وقالَ بِصَوْتٍ لَطيفٍ: «أنتِ معي، يا نانْسي! على الرَّغْمِ من كُلِّ شَيْءٍ أَنْتِ معي.»

أَرادَ سايْلَس أنْ يَأْخُذَ إيبي، قَبْلَ أنْ تتزَوَّجَ، إلى الْمَدينَةِ الّتي خَرَجَ منها في مَطْلَعِ شَبابِهِ مُتَّهَمًا بسَرِقَةِ الْمالِ. كان يُريدُ أنْ يُحدِّثَ أولٰئِكَ الّذين اتَّهَموهُ ظُلْمًا لِيَقولَ لهم إنّه غَفَرَ لهم فِعْلَتَهُمْ، وإنّ ثِقَتَهُ ببَني الْبَشَرِ قد عادَتْ إليه. وكان يَأْمُلُ، بَعْدَ هٰذه السّنينَ الطّويلَةِ، أنْ تكونَ بَراءَتُهُ قد ظَهَرَتْ، مِثْلَما انْكَشَفَ أَمْرُ السّارِقِ الّذي سَطا على ذَهَبِهِ. وَصَلَ سايْلَس وإيبي إلى الْمَدينَةِ، فإذا هي قد تَغَيَّرَتْ. لم يَجِدْ مَبْنى الْجَمْعِيَّةِ الْخَيْرِيَّةِ الّتي كان يَنْتَمي إليها. اِخْتَفى الْمَبْنى وحَلّ مَحَلَّهُ مَصْنَعٌ ضَخْمٌ. لم يَبْقَ هُناكَ أَثَرٌ يُذَكِّرُ بأولٰئِكَ الّذين عَرَفَهُمْ سايْلَس في ماضيهِ الْغابِرِ.



فِي الرَّبيعِ تَزَوَّجَتْ إِبي من آرُن. وعاشا مع سايْلَس في كوخِهِ الْقَريبِ من خَزّانِ الْمِياهِ. وأَكْمَلَ آرُن الْحَديقَةَ الّتي وَعَدَ بها. فكان لها سورٌ حَجَرِيٌّ من الْجانِبَيْنِ. أمّا الْواجِهَةُ فكان سِياجُها مَفتوحًا. فإذا مَرَّ أَحَدٌ من هُناكَ رَأى الْأَزْهارَ تَشْرَئِبُّ بأَعْناقِها.

وكانت إِبي تَقولُ لأَبيها دائِمًا: «ما أَجْمَلَ بَيْتَنا يا أبي! لا أَحْسَبُ أنّ أَحَدًا أَسْعَدُ منّا!»





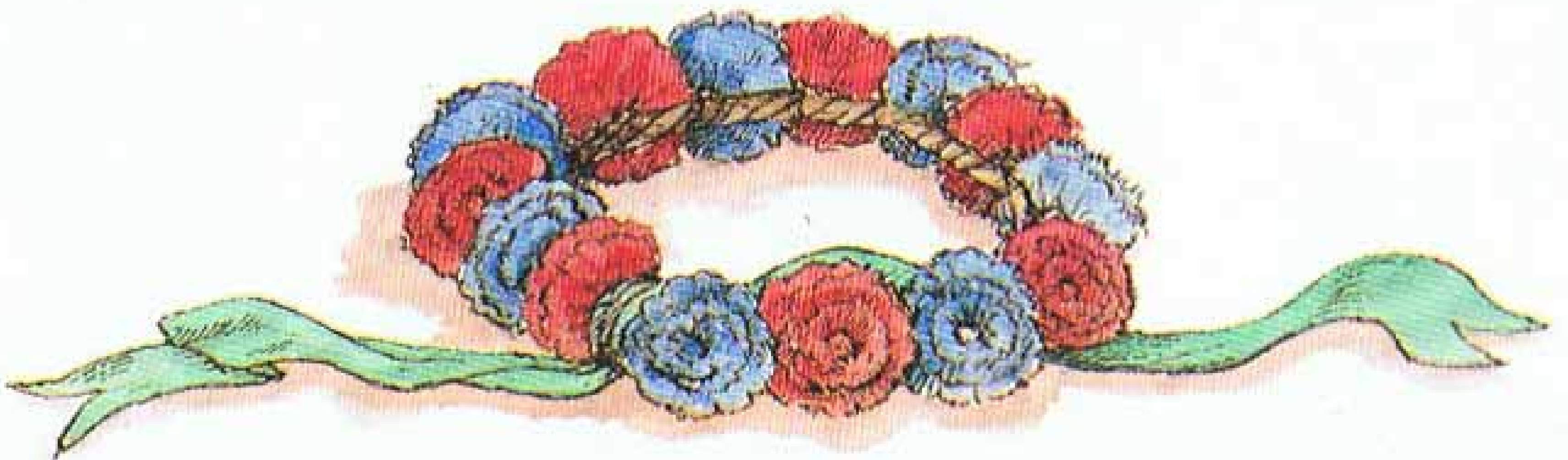
## المؤلّفة

إنّ بَيْنَ الْمَلامِحِ الْعامَّةِ في حَياةِ الْمُؤَلِّفَةِ جورْج إلْيوت وحَياةِ سايْلَس مارْنَر، وُجوهَ شَبَهٍ قَوِيَّةً. فهي أَيْضًا عانَتْ من شُكوكٍ كانت تُساوِرُها في ما حَوْلَها من مُؤَسَّسات ومُعْتَقَدات.

وُلِدَتْ في الْعامِ ١٨١٩، وكان اسْمُها الْحَقيقِيُّ ماري آن إيڤانْز. بَرَعَتْ في الْمَدْرَسَةِ ودَرَستِ الْفَرَنْسِيَّةَ والْأَلْمانِيَّةَ والْموسيقى. وعِنْدَما اضْطَرَّتْ في الْعامِ ١٨٣٦ إلى تَرْكِ الْمَدْرَسَةِ بَعْدَ وَفاةِ أُمِّها، فإنّها تابَعَتْ دِراسَتَها على نَفْسِها وقَرَأَتِ الْإيطالِيَّةَ والْيونانِيَّةَ واللّاتينِيَّةَ، بِالْإضافَةِ إلى مُتابَعَتِها دِراسَةَ الْأَلْمانِيَّةِ والْفَرَنْسِيَّةِ.

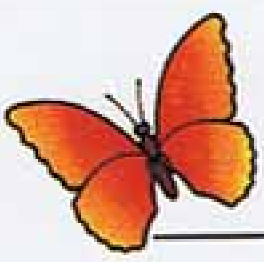
اِنْتَقَلَتْ ماري آن بَعْدَ وَفاةِ والِدِها إلى لَنْدَن. وهُناكَ أُتيحَ لها أنْ تَتَعَرَّفَ إلى أشْهَرِ أُدَباءِ عَصْرِها. وقد شَجَّعَها ذلك على أنْ تَشْرَعَ بِالْكِتابَةِ، فَنَشَرَتْ أَوَّلَ كِتابٍ لها في الْعامِ ١٨٥٦، وكان بِعُنْوانِ

Scenes from a Clerical Life. وقد تَبِعَ ذٰلك عَدَدٌ مِنَ الْمُؤَلَّفاتِ على مَدى عِشْرينَ عامًا. من مُؤَلَّفاتِها Adam Bede، و The Mill on the Floss. ولَعَلَّ أَشْهَرَ مُؤَلَّفاتِها كِتابُ Middlemarch الّذي نَشَرَتْهُ في الْعامِ ١٨٧١، وكِتابُ Silas Marner (سايْلَس مارْنَر) الّذي نَشَرَتْهُ في الْعامِ ١٨٦٠ ونُقَدِّمُهُ الْيَوْمَ إلى الْقارِئِ الْعَرَبِيِّ. لَقَدِ اخْتارَتْ ماري آن أن تَنْشُرَ كُتُبَها دائِمًا بِاسْمِ جورْج إلْيوت، وبِهٰذا الِاسْمِ الْمُسْتَعارِ عُرِفَتْ في عالَمِ الْأَدَبِ. وفي الْعامِ ١٨٨٠ تُوُفِّيَتْ.



# كتب الفراشة - القصص العالميّة

١ - الدُّكتور جيكل ومِستر هايْد
٢ - أوليڤَر تْويسْت
٣ - نِداء البَراري
٤ - موبي دِك
٥ - البَحّار
٦ - المخْطوف
٧ - شَبَح باسْكِرْڤيل
٨ - قِصَّة مَدينَتين
٩ - مونْفليت
١٠ - الشَّباب
١١ - عَوْدة المُواطِن
١٢ - الفُنْدق الكبير
١٣ - حَوْلَ العالَم في ثمانينَ يَومًا
١٤ - رِحْلَة إلى قَلْب الأرض
١٥ - كُنوز الملِك سُلَيْمان
١٦ - سايْلس مارْنَر
١٧ - شيرْلي
١٨ - رِحلات غاليڤر
١٩ - بعيدًا عن صَخب النّاس
٢٠ - مُغامَرات هاكِلْبري فين
٢١ - ديڤيد كوپرفيلد
٢٢ - البيت المُوْحِش (بْليك هاوْس)
٢٣ - المهر الأسود (بْلاك بْيُوتي)
٢٤ - جين إير
٢٥ - روبنسون كروزو
٢٦ - جزيرة الكنز
٢٧ - مرتفعات وَذَرِنغْ
٢٨ - الأمير والفقير
٢٩ - توم براون في المدرسة



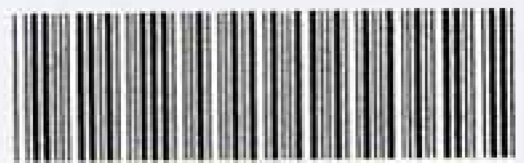
# كتب الفراشة

## القصص العالمية ١٦. سايلس مارنر

تشدّد المؤلّفة في هذا الكتاب على الصّلات الحميمة بين أفراد الأسرة الواحدة، وعلى أهميّة هذه الصّلات في تحقيق سعادة البشر. لقد استعاد سايْلَس عبر الابنة الصغيرة ثقته بالناس وحبّه للحياة. إنّ للصّلات العائلية قوّة تُغيّر حياة البشر. وهذه القوّة التي تبرزها المؤلّفة في كتابها أعظم إبراز، أسهمت في إعطائه طابعه العالميّ المميّز. سنحبّ جميعًا، كبارًا وصغارًا، حبكة هذا الكتاب المشوّق، وشخصيّاته الإنسانيّة وما يتقلّب عليها من قوّة وضعف.



مكتبة لبنان ناشرون



01C196820